نهج صنع مدينة عربية علامة مدينة بصمة

أ. د. هشام جلال أبوسعدة
أستاذ العمارة والتصميم العمراني- المركز القومي لبحوث الإسكان والبناء- جمهورية مصر العربية

المستخلص

شهدت بعض مدن العالم العربي، منذ منتصف الألفية الثانية، انطلاقة معمارية عمرانية على مستوى البناء الجديد والارتقاء بما هو قائم، إنما ما زالت تلك الانطلاقة تعتمد على اعتبارات مبنية على نماذج فكرية تبدو في معظمها أوربية-أمريكية، الأمر الذي يفترض معه أن ذلك هو السبب الرئيس في فقدان المدن العربية تفردها. تلك الهوية التي أو يفترض بها أن يكون ارتباطها وثيق بالبيئة التي سيشيد فيها البناء، ومتأثرا بما ينعكس فيها من أخلاق وقيم إنسانية ذات علاقة بالمضمون الحضاري الثقافي المعاصر والمسيطر في هذه البيئات؛ ومنه تنطلق أهمية هذا العمل. فالأخلاق السامية والقيم الإنسانية الدينية تكاد تكون متشابهة على مستوى كافة الديانات السماوية وحتى الوضعية، ونتيجة لتشابهها، فإنها بالتالي إن كانت منطلقا لبناء المدن فإنه سينشأ عنها عمارة وعمران متقاربة في الهوية، وهو الأمر الذي يتطلب القبول بتوجه يقبل بمتغيرات القيم المعاصرة. تتمحور إشكالية هذا العمل حول أن البحث عن وسيلة لدمغ المدن بانفرادة مختلفة لا يحتاج فحسب إلى احترام الأخلاق السامية والقيم الإنسانية الدينية بقدر ما يحتاج إلى تطوير النظرة التقليدية للبناء المعاصر بما يتلاءم مع ثقافة المجتمعات في البلدان العربية، كما عليها أن تتوافق مع اختلافاتها الجوهرية بينها والمجتمعات المتمدينة. فصنع فرادة مدينية من خلال مفهوم دمغ المدينة يحتاج إلى أكثر من مجرد مراجعات في العلوم الإنسانية وتتبع مفهوم الأخلاق والقيم إنما أن يكون هناك تصورا معرفيا وعلميا لما يدور في الفكر المتقدم عن صناعة المدن: توظيف ثوابت ومتغيرات مفاهيم الهوية والأخلاق والقيم والدمغ وتأكيد الانفراد سبيلا لابتكار أفكار هجين مبنية على نماذج فكرية مبتكرة ومستمدة من اقتراح نهج 'مدن متكافئة ومتعادلة في القوة إنما تظل لها خصائصها المتفردة.'

كلمات مفتاحية: أخلاق، تفرد حضري، قابلية التفرد ، قيم إنسانية، دمغ المدينة ، مدينة علامة، مدينة متكافئة، مدينة بصمة، هوية حضرية.

١. مسارات نحو معنى هوية المدينة

هل اختلفت مدينة اليوم عن الأمس أم إنها مازالت تبدو في الحاضر كما كانت؟ هل يبدو هذا الاختلاف في البناء والناس معا أم إنه مجرد اختلاف في الذكريات والتصورات والرؤى التي تتغير بتغير الأفكار؟ نشأت الهوية مع الاختلاف وليس هناك هوية ثقافية وليس لها ما يقابلها في مكان آخر. كما نشأت المدن وتطورت بسرعة في العالم المتقدم؛ خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، واستمر التطور متزنا ملتزما بعلوم العمارة والعمران التي كانت تلاحق تضخم المدن بتعدد متطلباتها، ويبدو أن تطبيقات تلك العلوم استطاعت أن تحافظ على هوية المدينة الغربية الإوربية والأمريكية على مر العصور، فكثير هي المدن التي ما زالت تحتفظ بجوهر العصر الذي أنشئت فيه، إنما استطاعت الرغم من الطفرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والتقنية أن تحافظ على هويتها التقليدية مرة أو أن تخلق لها هوية جديدة مرات؛ فباتت لكل مدينة وأمكنتها ومجتمعاتها المحلية هويتها المتفردة على مستوي البناء والناس. ولعل المجال ليس مهتما هنا لتكرار أمثلة من مثل: تأثير حرمة المكان والخصوصية والمباني ذات الأحواش أو النسيج المتضام، والارتفاعات المحدودة، وعمارة المساجد ذات الزخارف، والأحياء المعتمدة على ثلاثية علاقة السوق وقصر الحكم والمسجد. أما اليوم فالمدينة الجديدة في المنطقة العربية قاطبة تكاد تتشابه لحد كبير مع المدن الغربية ليس في شكل الأبنية ومحيطاتها إنما في المضمون الذي غير من سلوك الناس ونشاطاتهم بلا جدال.

بيد إنه يمكن القول أن نشأة مدن بعض بلدان العالم العربي في الزمن القديم كانت وفق أفكار وهبت لها هوية متفردة، وتطورت تلك المدن وتمددت، ولم يعد المشاهد يلحظ تلك الهويات التي كان يفرضها الإطار الثقافي والمعتقدي في الماضي، فأخذت المدينة المعاصرة عن العلوم الغربية نظرياتها ونهوجها وتياراتها الفكرية— في نقل غير مرفوض—مضيفة للمدن ما غير من إسقاطات القيم الإنسانية الكامنة في الثقافة العربية، فغير في الهوية كثيرا، حتى كان من بين التحديات التي فرضتها بعض نظريات العمارة والعمران الغربية أن فقدت عمارة وعمران بعض المدن التقليدية هويتها؛ وجاءت الجديدة أشباها.

طارحا هذا العمل عدة تساؤلات ذات علاقة بالهوية الحضرية، فهل تلك المدن الجديدة التي تنفذ بسرعة في بلدان العالم العربي لديها هذا القبول النسبي الذي كانت تحققه المدن التقليدية؟ ولم لم تعد صور تلك المدينة الجديدة تفعل في ذاكرة المتلقي—وهي موضع فعل الهوية—ما كانت تحققه المدن التقليدية والتاريخية؟ ولم لم يعد المشاهد—المقيم والزائر—يستشعر في وجدانه اليوم شيئا عن مدينة الحاضر غير إنها صورة تكاد تكون نسخية عن المدينة الغربية؟ وهل أحد أسباب غياب تأثير هوية المدينة عن ذاكرة المشاهد اليوم ناتج من افتقار المدينة الجديدة لبزوغ هويات متعددة على مستوى تركيب المدينة أم إنها باتت تفتقر لتوظيف ثوابت ومتغيرات مبادئ المعايير الأخلاقية والقيم الإنسانية أم إنها لم تعد تلبي متطلبات العصر وبما يتلاءم مع تلك المعايير؟

وهو ما يدفع إلى تساؤلات آخرى لعلها تمثل إشكالية: هل توظيف ثوابت ومتغيرات الأخلاق السامية والقيم الإنسانية بمفردها يمكن أن تصنع هوية مدينية متفردة؟ وهل هناك بالفعل ما يمكن أن يطلق عليه عمارة وعمران أخلاقية أم أن الأخلاق متعلقة بممارسة المهنة وفيما يخص المنتج تصبح نسبية ولا يمكن الاعتماد عليها كمعيار لتقييم جودة البناء ومعيار تفرده؟ وهل يمكن اعتبار أن القيم الإنسانية المعاصرة القائمة على مفاهيم غربية استثمارية واقتصادية مثل القدرة على المنافسة وتحقيق مدخول اقتصادي يمكن أن تتلائم مع القيم الإنسانية العربية وتدفع بإيجاد عمارة وعمران مدينة عظيمة أو مدينة علامة؟ الأمر الذي يدفع بضرورة البحث عن نهج يمكن من توظيف كل ما فات لتحقيق مدينة عربية معاصرة علامة ذات هوية متفردة؛ أو لعلها غير مسبوقة.

يمكن استعارة مصطلح هوية المدينة لوصف السمات المميزة لمدينة أو مجموعة من المدن، ومنها يمكن تحديد مدى ارتباط المدن ببعضها أو انفراد مدينة أو أكثر بسمة أو بمجموعة من السمات المختلفة ، فتأتي هوية المدينة بمعنى إنها تلك المدينة التي تميز نفسها عن غيرها من المدن. (Proshansky, et al., 1983)

بيد أن المدينة ليست شيئا مستقلا في حد ذاته كما يراها كيفن لينش (١٩٦٠)، إنما تعرف عنده من خلال صور تتجمع في مخيلة قاطنيها، فكل مواطن لديه مشاركة حياتية طويلة مع جزء من أجزاء مدينته، ويتم استيعاب هذه الصورة في الذكريات والمعاني، واضعا لينش الهوية ضمن مكونات صورة البيئة بجانب الهيكل والمعنى (Lynch, 1960, pp. 1, 3,10)، وبالتعرف على تجارب الناس وتحديد جذور وبنية أي مجتمع يمكن تحديد هويته الثقافية ومنها يمكن التعرف

على هوية المدينة التي تكونت عبر العصور التاريخية المختلفة من خلال الطابع والشخصية والتجارب الإنسانية وسلوك الناس والمعاني والصفات البصرية.

وفي سياق آخر يعد مانويل كاستلز (١٩٩٦) صاحب نقلة نوعية في نظرته للمدينة باعتبارها كيان تقني مؤثر على التغيير الاجتماعي، خاصة بعد الثورة الرقمية وما أحدثته ثورة المعلومات في مجال العولمة من تغير في شكل المدينة اجتماعيا وثقافيا وتقنيا، فبدأت العولمة تؤثر على هوية مجتمع المدينة. وهو من ابتكر التخطيط الحضري للمدينة الإعلامية the informational city بناء على مفهوم فضاء التدفقات حسب بيتر هول (١٩٩٦)، وتحدث فيها عن التفاعلات البعيدة التي تساهم فيها شبكة المعلوماتية والتقنية الحديثة في عصر المعلومات (Hall, 1996). مناقشا كاستلز سلطة الهوية (١٩٩٧) كمنشأ لمعنى وخبرة الناس، في إشارة للعناصر الاجتماعية الفاعلة، متحدثا عن عملية بناء المعنى على أساس سمة ثقافية أو مجموعة مترابطة من السمات، وبهكذا معنى يظل لها أولوية على غيرها من مصادر المعني، ويؤدي كل نمط من عملية بناء الهوية لنتائج مختلفة في تكوين المجتمع. فمنذ الثمانينيات بزغ نظام اقتصادي عالمي متعدد الأقطاب والمراكز من مرتكزاته تدفق القيم بمعناها الاقتصادي، وتدفق المعلومات وتنظيم شبكات تتداخل فيها المصالح والمصائر بحيث لم يعد ممكنا فصل قلب النظام عن محيطه. ويعتبر كاستلز المدينة العالمية ليست مكانا، بل عملية ترتبط عن طريقها مراكز إنتاج واستهلاك الخدمات المتقدمة والمجتمعات المحلية المعتمدة عليها عبر شبكة عالمية، معتبرا أن سلطة المدينة العالمية حشدت من خلال شبكات العولمة. (Castells, 1997, pp. 6,8, 386, 410)

فظاهرة المدينة العالمية—وفي أعلى تسلسل هرمي لها— حسب كاستلز لا يمكن اختزالها في عدد محدود من الأنوية الحضرية، فهي عملية تربط الخدمات المتطورة والمراكز المنتجة والأسواق في شبكات عالمية، مع كثافة مختلفة وعلى نطاق مختلف تبعا للأهمية النسبية للأنشطة الموجودة في كل منطقة في مواجهة مع الشبكة العامة، وداخل كل بلد تستنسخ عمارة وعمران الشبكات نفسها لمراكز إقليمية ومحلية، وبالتالي فالنظام بأكمله يصبح مترابطا على المستوى العام (Castells, 2010, p. 380). مقترحا كاستلز فكرة أن ثمة سمة فضائية شكلية جديدة من الممارسات الاجتماعية التي تهيمن وتشكل مجتمع الشبكات: فضاء التدفقات، والذي عرفه باعتباره التنظيم المادي لتقاسم وقت الممارسات الاجتماعية العاملة خلال التدفقات، وبواسطة التدفقات تفهم سلسلة التبادلات والتفاعلات الهادفة والمتكررة والقابلة للبرمجة بين المواقف المفككة جسديا والمنعقدة بواسطة الأطراف الاجتماعية الفاعلة في بنية الهيكل الاقتصادي والسياسي والرمزي للمجتمع، فالممارسة الاجتماعية المهيمنة تشكل جزء لا يتجزأ في البنى الاجتماعية السائدة، وعبر تلك البنية المهيمنة يمكن فهم تلك الترتيبات المنظمة ويلعب فيها المنطق الداخلي دورا خططيا في تشكيل الممارسات الاجتماعية والوعي الاجتماعي للمجتمع. (Castells, 2010, p. 412)

وثمة من يرى المدينة مجموعة أمكنة، وليست مجرد فضاءات بلا معنى، من مثل لورانس دوريل (١٩٦٩) وإدوارد ريلف (١٩٧٦) وهارولد بروشانسكي (١٩٧٨؛ ١٩٨٣) وكريستيان نوربرج شولتز (١٩٧٩) وكيفن لينش (١٩٨١) وجي نيكولاس إنتريكين (١٩٩١) وفيليب كوتلر وكريستر اسبلاند وايرفينغ رين ودونالد حيدر (١٩٩٣) و روجر مور وآلان جريف (١٩٩٤). حيث التعامل مع تلك الأمكنة يكون من خلال فهمها ضمن مجتمعات محلية تختلف باختلاف الناس والأحداث والنشاطات والمعاني، كما إن الأمكنة تمتزج بالطريقة التي يتوزع بها الجلاء والقتامة بين المواضع ومناظر الأرض والطقوس والرتابة والتنميط والآخرين والخبرة الشخصية والرعاية والاهتمام من أجل الوطن وسياق أمكنة أخرى (Relph, 1976, p. 29). وهو ما ينقلنا إلى التعامل مع هوية المكان باعتبارها سمة أساسية تتولد من ناتج خبرتنا عن الأمكنة حسب ريلف وكليهما يؤثران ويتأثران بتلك التجارب المستمرة، الذي بين أن هوية المكان تشير للتشابه المستمر والوحدة التي تسمح لذلك المكان بأن يكون متمايزا عن غيره من الأمكنة (Relph, 1976, p. 45)، وتتكون تلك الهوية من خلال التوليف المباشر بين البعد المادي للمكان والأنشطة والمواقف والأحداث والمعاني الفردية والجماعية التي خلقت من خلال تجارب الناس والنوايا فيما يتعلق بذلك المكان، وهو ما يصنع لكل مكان روح مختلفة عن الأمكنة الأخرى، فروح المكان هي الأهم في أي ثقافة. بيد أن روح المكان كما يشير ريلف يمكن أن تستمر على الرغم من إحداث تغييرات عميقة في الهوية، وأن واحدة من أساسيات العيش في المكان هي توفير جوهر لهذا المكان. (Relph, 1976, pp. 48-49)
ومن ثم تتحول الأمكنة من كونها ذات حس أصيل إلى أمكنة تفتقر إلى الإحساس بالمكان حين تفتقد قبول القيم الجماعية دون تمحيص، معبرا عنها بالفن الهابط (Relph, 1976, p. 143). ففي حين تمثل الأمكنة داخل المدينة حسب ريلف مراكز هامة لتجاربنا الفورية (Relph, 1976, p. 141)، فإن هوية المكان حسب لينش ترتبط بشدة بهوية الذين يحيون في هذا المكان (Lynch, 1981, p. 132)، في حيت يقدم لنا المكان نفسه كشرط للتجربة الإنسانية حسب جي نيكولاس إنتريكين: فنحن دائما كعملاء على مستوى العالم في مكان بقدر ما نحن في ثقافة (Entrikin, 1991, p. 1)، كما يرى كوتلر وآخرون الأمكنة باعتبارها منتجات ينبغي أن تصمم وتسوق للهويات والقيم (Kotler, et al., 1993, p. 11). وفي سياق آخر، تعرف هوية المكان حسب بروشانسكي من خلال الإدراك المعرفي عبر رصد علاقة بين النفس البشرية والبيئة المادية باعتبارها الأبعاد الذاتية التي تحدد الهوية الشخصية للفرد فيما يتعلق بالبيئة المعمارية العمرانية المشيدة عن طريق نمط معقد من المثل الواعية وغير الواعية والمعتقدات والأفضليات والمشاعر والقيم والأهداف والاتجاهات السلوكية والمهارات ذات الصلة بهذه البيئة (Proshansky, 1978, p. 155)، وهو يشير مع آخرون في العام ١٩٩٣ إلى أن هوية المكان تمثل جزءا من هوية الإنسان الذي يحيا في هذا المكان، فالمكان هوية فرعية وجزء من الهوية الذاتية التي يحياها الإنسان، تلك الثقافة الذاتية تتكون من مجموعة من المدركات المعرفية التي يمكن تصورها على نطاق واسع مثل الذكريات والأفكار والمشاعر والمواقف والقيم والأفضليات والمعاني ومفاهيم السلوك والخبرات التي تتعلق بتنوع وتعقيدات تجهيزات البيئة المعمارية العمرانية (Proshansky, et al., 1983, p. 59). بيد أن هوية المكان لا تتطور فحسب من خلال العلاقات مع الناس حسب مور وجريف إنما هي أيضا تتطور مع الأماكن التي تمثل تحضيرات وإعدادات الحياة اليومية (Moore & Graefe, 1994). وفي سياق آصغر، ثمة من يرى هوية المدينة باعتبارها نتاج معماري عمراني لتكوينات متكررة من كتل بنائية مفردة، مثل كليف موجن (٢٠٠٣) وتشارلز جينكس (٢٠٠٥)، حيث تسهم المباني البارزة كرموز حسب جينكس في تحديد صورة المدينة أو المكان (Jencks, 2005, p. 185). وثمة من يرى عمارة وعمران الأبنية تصنع هويات اجتماعية مرتبطة بعمارة وعمران الكتلة المفردة إنما إنها واقعة ضمن نطاق السلطة كما نوه ريتشارد جينكس (١٩٩٦) لحد أن عمارة وعمران الكتلة أصبحت الوسيلة والغاية في السياسة (Jenkins, 1996, p. 24). فعلى مر التاريخ وفي جميع أنحاء العالم حسب لورنس فالي (١٩٩٢) تم التلاعب بالعمارة والتصميم الحضري ليكونا في خدمة السياسة، خاصة عند بناء الأبنية الحكومية التي تكشف في الكثير مما لديها عن فالي نقلا عن كليفورد جيرتز ما يسمى التوازن الثقافي للسلطة، كما لا يزال تصميم الكثير من الأبنية التي أقيمت لتصف هوية أو وحدة وطنية مرتبطا ارتباطا وثيقا بالقوى السياسية التي تعزز أنماط من الهيمنة والخضوع الحالي (Vale, 1992, p. 1. 10). مؤكدا تيم هول وفيل هوبارد (١٩٩٨) على تلك الهوية حين أشارا إلى أن استراتيجيات توسيم الأماكن وإعادة التصوير هي لعبة السلطة، فتلك التعبيرات في كثير من الأحيان كانت محل جدل، فبناء الصورة هو بناء للهوية والتي تميل لتكون في صالح الفئات التي في السلطة. (Hubbard, 1998, p. 28)

ويخلص هذا الفاصل إلى أن ثمة مجموعتين لتحديد هوية المدينة، تخص الأولى البناء المعماري العمراني المادي وتتضمن هوية المكان وهوية كتلة المبنى المفرد، في حين تكون الثانية ذات صلة بالهوية المجتمعية وتتضمن هوية سلوكيات الناس ثم الأحداث والأنشطة المكانية. وبما أن الهوية الاجتماعية تحدثت بإسهاب عن سلطة الهوية—وكيف يمكنها أن تتتحكم في شكل مدينة بعينها أو حتى مكان أو مبنى—فلعلها أصبحت مدخل مهم لفض مسألة توجيه الهوية بناء على سلطة أو رغبة تخالف المعايير الأخلاقية (الشكل ١)، فحسب لورانس فالي (١٩٩٢) *في أدبيته العمارة والسلطة والهوية الوطنية* في باب مركز

السلطة السياسية نقلا عن المفكر نيلسون جودمان مقولته إننا يجب أن نأخذ في اعتبارنا كيف يمكن لعمل معماري محدد أن يحمل معنى قبل أن نكون قادرون على التصدي لمسألة ما يمكن أن يعنيه هذا المبنى، فثمة مبنى قد يتحول معناه بسبب طرق لا علاقة لها بكونه عملا معماريا—فمن خلال مؤسسة معينة يمكن أن يكون رمزا لملجأ للحماية، أو تعبيرا عن حكم إرهابي، أو الكسب غير المشروع (Vale, 1992, pp. 3-4)؛ ويظل لدينا سؤالين هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة وماذا إذن إن تغيرت القيم الإنسانية التقليدية لتتلاءم مع روح العصر؟

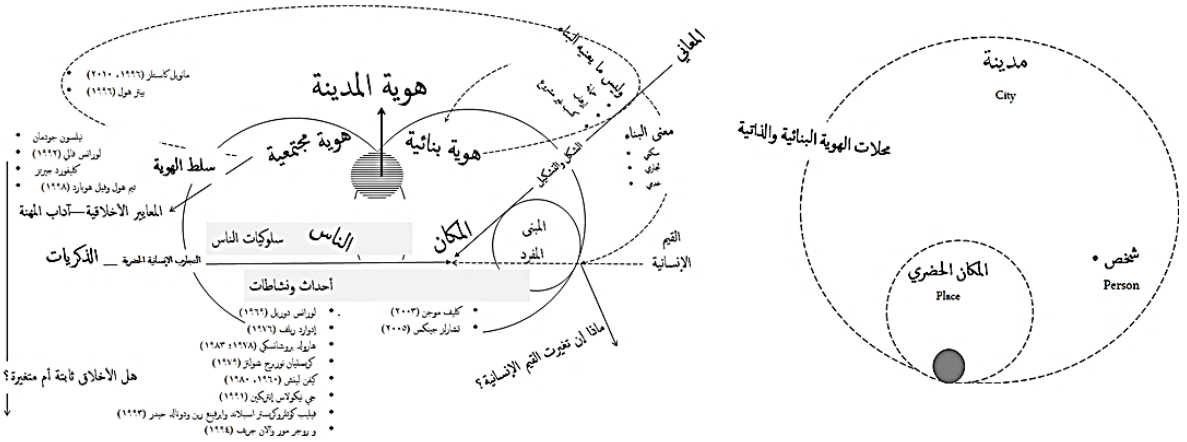

(شكل ١) هوية المدينة وسلطة الهوية المجتمعية ودور الأخلاق والقيم في التأثير على الهوية البنائي.

وهو الأمر الذي يدعو إلى فتح المجال لمناقشة مسألة توظيف ثوابت ومتغيرات الأخلاق والقيم الإنسانية ودورها في توجيه الهوية عبر طرح أربع فرضيات: ١.) إن ثمة توازنا ينبغي أن يتحقق في البدايات المبكرة لتقييم أداء (أو حتى عند البدء في) صنع مدينة جديدة بين عنصرين هما: البناء المعماري العمراني والاجتماع البشري، وأن أي تنازل عن أي منهما يفقد المدينة بصمتها، ٢.) إن المعايير الأخلاقية لا تحكم إلا عنصر وحيد من هذين العنصرين هو الاجتماع وفي جانب ممارسة المهنة أما العنصر الثاني والمتعلق بالبناء فيحكمه مدى نجاح تطبيق معطيات النماذج الفكرية، وصولا لحتى التشكيك في كون أن هناك ما يمكن تسميته عمارة وعمران أخلاقية فيما يخص المنتج البنائي، ٣.) إن الفكر المعماري والعمراني يتطلب تفعيل مبادئ القيم الإنسانية المستنبطة من الإطار الفكري والحضاري للمجتمعات بعد ترجمتها لمعايير وأسس تخطيط وتصميم، إنما هي بمفردها لا تقود إلى تفرد مديني؛ فالفكر الغربي المعاصر قدم قيم أخرى مختلفة قد تتعارض مع القيم الإنسانية العربية ويمكن الاستفادة منها، ٤.) إن المدن العربية الجديدة تأخذ منحى الفكر الغربي وتستعين بتطبيقاته وإن بدأ الممارس العربي في البحث عن وسائل للدمج بين تلك التطبيقات والقيم الإنسانية المستمدة من ماضيه وواقعه أصبحت مدينته صاحبة بصمة.

٢. ثوابت ومتغيرات المعايير الأخلاقية: أهي آداب لممارسة المهنة أم معايير بناء؟

الأخلاق كلمة مشتقة من ethos الإغريقية وترجمتها بالإنجليزية ethics، وحسب قاموس أكسفورد الوجيز هي نظام من المبادئ الأخلاقية التي تحكم على الأفعال الإنسانية بأنها جيدة أو سيئة، صح أم خطأ؛ وهي قواعد السلوك فيما يتعلق بفئة عمل إنساني معين. وعرفها سباستيان لوب (١٩٧١) بأنها طبع وروح وتصرف مجموعة من الناس أو ثقافة (Loeb, 1971). وهي مختلفة عن الكلمة الإنجليزية morality التي تعني 'دراسة خصائص الأخلاق،' أو "الثوابت التي يتبعها فرد أو جماعة لمعرفة ما هو الصواب والخطأ، والمسألة الأكثر إلحاحا هي المعنية بكيف للمرء أو الجماعة معرفة الحق من الباطل،" كما اختلف فهم موضوع الأخلاق باختلاف الثقافات والحضارات، بيد إنه ليس له علاقة بجماعة أو ثقافة أو ديانة بعينها دون أخريات، فتجده في كافة الأعراف منذ بدايات تاريخ البشرية وحتى عصرنا. مبينا ستارجيون (٢٠٠٩) إن خصائص الأخلاق نسبية تختلف باختلاف الثقافات (Sturgeon, 2009). وبانت العلاقة بين العمارة والأخلاق في الفكر الغربي بتنويه لويس كان عن فكرة الأمانة مرورا لبيان أثر الأخلاق في العمارة فقال في مقابلة معه: أعتقد في عمارة صريحة، وأن البناء نضال وليس معجزة، وعلى المعماري أن يقر ويعترف بذلك (Loud, 1990, p. 84). كما بانت تنويهات حول العلاقة بين الأخلاق والعمارة فيما بين ٢٠٠٠-٢٠٠٣، متفقين توماس فيشر وورويك فوكس وباري واسرمان وباتريك سوليفان وجريجوري باليرمو وتوم سبيكتور أن العمارة اختصاص تصميم وانضباط أخلاقي منتجاتها تثير تساؤلات أخلاقية، كما أن تحقيق طريقة عيش مستدامة ليست مجرد مسألة تقنية إنما مسألة أخلاقية تبحث في معايير حاكمة لتصرفات البشر، أهي ملائمة أم غير ملائمة. (Fox, 2008, p. 189; Wasserman, et al., 2000, pp. 57-58; Williamson & Radford, 2000; Spector, 2001, p. IX)

وتعد العمارة فرع من فروع علم الجمال أكثر من كونها فرع من فروع الأخلاق، وأمست تنسحب على المعمارين وليس على منتجات العمارة ذاتها، أي على تصرفات الممارسين وليس على صفات المباني (Fisher, 2000 , p. 123)، وتتعدد بين: ١. وصفية ومعيارية فكرية وتقاس بحجج وبراهين، ٢. فوقية دلالية مفرقة بين الموضوعي والشخصي، ٣. أخلاقيات تطبيقية للممارسة، معرفها فلاسكواز (٢٠٠٦) بمجموعة المبادئ وقواعد السلوك والقيم الأخلاقية التي تحكم على فرد أو جماعة (Velasquez, 2006, p. 8). وتمثل دائما الأخلاق المعيارية قلب الأخلاق من حيث أنها متعلقة بثلاثة أمور: بث الخصال في الشخصية؛ والتمسك بمبادئ بعينها مهما اختلفت المؤثرات الخارجية؛ وتوخي المنفعة (Fox, 2000, p. 389). فعلى مستوى الممارسة يرى توم سبيكتور أن المعماريون يعيشون ويعملون في أداء وتسيير أضعف فالمهنة اليوم تفتقر لهيمنة أخلاق التصميم (Spector, 2001, p. IX)، وعن أدبية ورويك فوكس *الأخلاق والبيئة المشيدة* يبين (الشكل ٢) الفئات الست الكبيرة للأخلاق في العمارة. (Fox, 2000, p. 388)

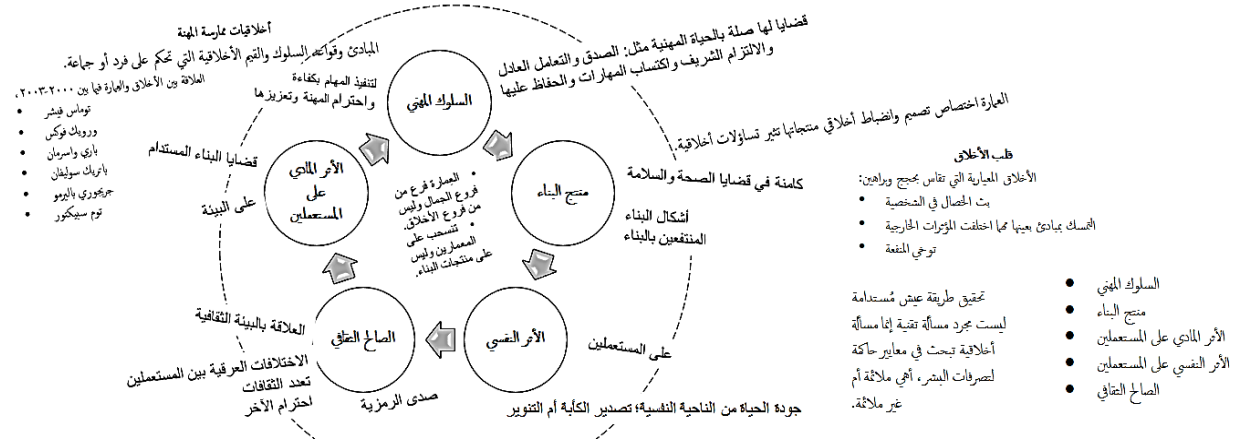

(شكل ٢) الأخلاق والعمارة: المعايير الستة للأخلاق في العمارة.

ففي أي مجتمع، لا تعبر ولا تمثل الحياة الأخلاقية نفسها، إنما تكون تعبيرا وتمثيلا عن وظائفه (Levinson, 2005, p. 569)، فما القول إن الحداثة المعمارية في عشرينيات الألفية الثانية التي جاءت بمعرفة أساطين رواد العمارة قد ماتت، معلنا أدا لويس هاكستبل (١٩٨١) أن فترة حقبة الأساتذة فرانك لويد رايت وميس فاندر روا ولوكوربوزييه قد انتهت (Huxtable, July 16, 1981, p. 17)، فعلى الرغم من ذكر أوسكار نيومان (١٩٩٦) إن مجتمعا سكنيا حداثيا قد نال جائزة المعهد الأمريكي للمعماريين عند تصميمه في العام ١٩٥١ (Newman, 1996, p. 10)، فإن تشارلز جينكس نعى الحداثة ساخرا حين كتب إن هذا المبنى قد واجه مشكلات مجتمعية أدت الي ارتفاع نسبة الجريمة فيه مقارنة بغيره، كما إنه تعرض مرارا للتخريب فالهدف من بنائه كان ترسيخ قيم محددة عند شاغليه عن طريق القدوة الحسنة، الأمر الذي كان يتعارض مع ذلك الطراز المعماري، لأن تلك الأفكار الساذجة المأخوذة من فلسفات التعقل والسلوك والسببية كانت لا تعقلية شأنها شأن الفلسفة ذاتها (Jencks, 1977). وكتب جينكس عن الحداثة في العام ١٩٨٦ إنها قد أخفقت في كونها أسلوبا للتشييد أو من أجل عمارة وعمران المدن، إنما من ضمن أسباب هذا الإخفاق هو عدم قدرتها على خلق عمارة وعمران تتواصل مع المستعملين والجمهور في سياق المدينة والتاريخ، فهؤلاء لا يعنيهم الطراز، كما إنهم قد لا يفهمون معنى طراز، وربما لا يدرون حتى كيف سيتعلمونه (Jencks, 1986). فنحن في نقطة تحول في نهاية الحداثة كما عرفناها، فنحن لدينا اليوم مواقف جديدة، تعددية جديدة، اعتقاد جديد في كثير من التيارات المتدفقة في آن واحد حسب فيليب جونسون (١٩٧٨) نقلا عن نان ألين (١٩٩٩)، متعللا بأن اليوم لا توجد يقينية، إنما نحن في حاجة لرغبة جديدة لاستخدام التاريخ والرموز، فنحن لا نريد لكل شيء أن يبدو وكأنه صندوق زجاجي بعد الآن (Ellin, 1999, p. 110)، كما أن النتاجات البنائية لعمارة ما بعد الحداثة حسب جينكس (١٩٨٨) صور تمتلك شفرات معمارية تقليدية وحديثة، وتقييمها يكون من قبل الأفراد والنخبة وفق فهم كل منهم لها، فكل منهم يفهمها وفق تجربته ودرجة اختصاصه، قاصدا إنه في الغالب ما تتجاهل تلك العمارة ذوي الخبرة أو إنها متحيزة للنوايا والمزاج—على العكس مما يفترض أن تكون عليه في اتجاه أن تتمثل تجربة مقطوعة موسيقية متجانسة (سيمفونية) أو عمل فني. وأن وأحد من الأثار المترتبة عنها من بين أشياء أخرى، فعلى المعماري أن يتجاوز التشفير في مبانيه، مستخدما العلامات والاستعارات الشعبية، وإن كان يريد لعمله التواصل على النحو المنشود والبقاء مدى الحياة فعليه تغيير شفراته. (Jencks, 1977, p. 70)

بيد أنه من اللافت أيضا نعت أدولف لوس—وهو ممن يطلقون على أنفسهم نقائيين— الزخرفة بأنها تعد جريمة أخلاقية: ويصفها بأنها من سمات الهمجية والكبت الآثم، حيث يمكن تتبع موضوع الأخلاق في العمارة والعمران من خلال متابعة حركة الوحشية، وهي مدرسة واتجاه فني لا يهتمان بالمضمون وإن كان يقصدان في الظاهر الصدق والبعد عن الزيف والتكلف، كقيم أخلاقية رفيعة، أما الاهتمام الشكلي فتوفير المتعة البصرية للمشاهد بشكل نابع من تحقيق الإشراق والتألق، فيبقى الاهتمام البالغ بالمعالجة الفنية ذات الالوان الصارخة والصاخبة، والطفولية والعفوية شديدة البساطة، وحتى بالاستعانة بالألوان المتنافرة لتحقيق تكوين تشكيلي عفوي مركب من مجموعة عناصر متنوعة مع إظهارها من خلال ألوان صاخبة صافية ذات تضاد قوي. وانتقلت حركة الوحشية دون ترتيب إلى بريطانيا وصارت معروفة بمذهب عمارة الوحشية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، منتصف القرن العشرين كحركة فكرية أوربية وليست طريقة تصميم—استمرت ما بين ١٩٥٠-١٩٧٠—مناهضة لأعمال معمارين ما بعد الحرب. ونقلا عن ألكسندر كليمينت (٢٠١١) أشار هانز أسبلاند أن هذا المصطلح قد صك في العام ١٩٥٠ حيث جاء في سياق وصف أعمال زملائه بينجت إدمان وولينارت هولم. (Clement, 2011, p. 7)

وجاء مشتقا من الكلمة الفرنسية خرسانة خام be´ton brut كمفتاح أصولي لحركة الوحشية الجديدة (Gatley & King, 2015, p. 149)، وبمعرفة البريطانيين أليسون وبيتر سميثسون (١٩٥٢) حين قدما نبذة موثقة عن سكن خاص في تشيلسي ومبناهم السكني الذي شيدوه في حي سوهو في مدينة لندن، في مقالهم في دورية التصميم المعماري في ديسمبر من العام ١٩٥٣، فالمبنى مزيج من المأوى والبيئة، وهدفهم من مبناهم أن يكون الهيكل مكشوف كليا دونما تشطيبات داخلية كلما كان ذلك متاحا (Smithson & Smithson, December 1953, p. 342). وأصبحت الكلمة متداولة على مستوى العامة في العام ١٩٥٩ بمعرفة رينار بانهم في أدبيته المعنونة *الوحشية الجديدة: أخلاق أم جمال*، وتركزت أهم سمات تلك الحركة في استخدام الخرسانة الخام بطبيعتها دون إضافة أي تشطيبات أو دهانات خارجية، حيث ظهرت في مواجهة عمارة مكعب الوظيفيين الأبيض من أبطال ما قبل الحركة الحديثة، حين كان الطوب بطلاء أبيض ليتبين المبنى كأنه آلة انهي سطحه بالخرسانة. في حين أراد الوحشيون أن يكونوا أمناء وصادقين مع أسطح المواد بترك الطوب دون دهان أو جلي ويبقى سطح الخرسانة مكشوف أو معرض للرؤية، حيث تترك السطوح ظاهرة مع عدم ملء فواصل ما بين مواد البناء (Parnell, 2011, p. 52). وحسب بانم (١٩٥٥) حملت الحركة ثلاث مزايا أساسية: تعبيرا نقيا للبناء؛ استعمال صريح للمواد؛ وتقيم المواد على حالها (Banham, 1955, p. 361). وكتب ستيف بارنيل "حسب الوحشيين، إن الأخلاق هي الصدق في المواد والبنية (الهيكل والإنشاء) —تظهر ما تم بنائه وكيف تم هذا البناء، وتلك الجماليات جاءت كلها بالتزامن مع معرض الحياة والفن وبروت الفن حسب جان دوبوفيت. واستعار ستيف بارنيل (١٩٥٩) عن بانم إن تسخير الصفات البصرية كان لتعزيز أثار الحالة التي استهزأت بالتوافقات الإنسانية للجمال من أجل التشديد على توجه العنف والتشويه والغموض حيث أصبح الابتكار التخريبي حاضرا (Banham, 1966, pp. 61-62). مؤكدا بانم أن الوحشية الجديدة في الجانب الأخلاقي حركة لم تخترق الإطار الجمالي المرجعي (Banham, 1966, p. 134)، مشيرا ألكسندر كليمينت (٢٠١١) إلى وصف الوحشية لنمط محدد من عمارة الحداثيين (Clement, 2011, p. 7)، ومن أهم معماريها لوكوربوزييه—الأب لعمارة الحداثة، وهو أيضا الأب لعمارة الوحشية

(Clement, 2011, p. 10)___، ولويس كان وبول رودلف وألفار ألتو وكنزو تانجي، ومن بعض أشهر أعمالهم كانت: كنيسة رونشان، فرنسا (١٩٥٠-١٩٥٤)؛ ووحدة السكن في مارسليا، (١٩٥٢) من تصميم لوكوربوزييه؛ ومشروع الممر الذهبي (١٩٥٢) وكذلك هونستانتون، نورفولك (١٩٥٤)، وكليهما يقعان في لندن من تصميم الزوجين البريطانيين بيتر سميثسون وأليسون سميثسون؛ وكنيسة فوكسينا إيماترا، فنلندا، من تصميم ألفار ألتو (١٩٥٨)؛ ومركز الاتصالات، اليابان، كنزو تانجي، (١٩٦٩)؛ ومركز بيل للفن الإنجليزي، لويس كان، (١٩٧٤)، هنا يثار التساؤل الأهم الذي يتمحور حول هل يمكن الحكم على مدى صدق العمارة الوحشية من عدمه من منظور أخلاقي من خلال متابعة أهم السمات الحاكمة لها كما جاءت في (الجدول ١)؟

جدول ١: عمارة وعمران وحشية (١٩٩٠-٢٠١٣)

(Clement, 2011, p. 7; Samuel, 2007, p. 47; Collins, 2004, p. 344; Banham, 1966, p. 357; Webster, 1997, p. 142)

عمارة وعُمران	السمات	الخصائص والسمات وفق أقوال الرواد	المعمارى
كتلة المبنى الرئيسة	أن يتضح الثقل النسبي لطبيعة المبنى.		
	تتكون من أحجام هندسية مترابطة مع بعضها كليًا بشكل متوازن.	متميزة واستثنائية ومثيرة في نفس الوقت، بالمثل كأي " شكل من أشكل العمارة التي بانت قبلها، فهي قابلة لتوليد " العواطف المتطرفة والجدل المُحتدم.	رينار بانهم
	متداخلة بشكل فني مثير عاطفيًا.		
التشكيل	يُبرز التضاد.	قررت أن أصنع الجمال من التناقض، وسوف أجد تتمته " "وإرسائه باللعب بين الفظاظة والجودة، والدقة والمصادفة.	لوكوربوزييه عن فلورا صمويل
المخطط المرسوم	إمكانية وسهولة القراءة.	ليس من ثمة لغز، كما أنه لا توجد رومانسية، وليس هناك غموض، حول الوظيفة والمسارات"	رينار بانهم
السطوح	إظهار الصفات البصرية الكئيبة التي مازالت تحمل بصمة دقيقة لإطار الخشبي الذي سُكبت فيه الخرسانة.	تلك المُشكلات قد انتهت باستخدام التقنية الحديثة فلم تعد " الصورة البصرية الكئيبة التي كانت تصنعها ألواح الخشب " القديم المُستخدم في صبة الخرسانة.	بيتر كولينز ٢٠٠٤
مواد البناء	الإظهار بشكل واضح وصريح.	تعليق على تصميم مدرسة هونستانتون، نورفولك، لبيتر وأليسون سميثسون "يمكن للمرء أن يرى مما كان قد صُنع هونستانتون بل وكيف بعمل، وليس عن أن ثمة ملاحظات أخرى يمكن معرفتها عدا لعب الضضاءات. "	رينار بانهم
		ليست معنية فحسب بالصدق في استخدام وبناء المواد " ...ولكنها جاءت على أساس برنامج اجتماعي ' كما وجدت' ." ملتزم لخلق عمارة ذات صلة اقتصاديًا وبيئيًا وثقافيًا	قاموس وبستر
أنظمة إنشائية	حوائط حاملة وحجوم وأشكال معمارية توحي بثقل وزن المبنى.	قاعة مدينة بوسطن، بوسطن، ماساتشوستس، ١٩٦٨.	كالمان وماكينيل ونولز، ١٩٦٨
فتحات	أشكال غير مألوفة ووضعها بشكل عشوائي غير مرتب.		
وظيفة المبنى	إخفائها خلف شكله ومعالجاته.		
الدواخل	ذات زوايا حادة ومنفرجة.		

ونعود لنتساءل هل الاختلاف البادي بين ما حصل في السابق وأفرز معه حركة الوحشية الجديدة ثم وانتفائها بحل مشكلات التقنية والممارسة العملية أثبت أن توجه الحداثيون القدماء كان أكثر صدقا من توجهات معماري اليوم في أبنيتهم القابعة خلف دهانات وطلائات وتركيبات تكاد تخفي ليس فحسب مواد البناء والإنشاء إنما أيضا تخفي التعبير الوظيفي للبناء وشكله العام؟ إذ فماذا عن حركة العمارة الجلدية التي تخفي البناء كليا وراء غطاء مزيف؟ وماذا عن عمارة سيادة المرئيات التي كانت بدايتها في ثلاثينيات القرن الفائت، وبانت دائما في حركتي الحداثة والحداثة المتأخرة وما بعد بعد الحداثة أو التفكيكية؟ مع الأخذ في الاعتبار أن عمارة سيادة المرئيات غايتها دعم الجمال والتفرد، مع فرد مساحة للخيال عند مبتكريها اعتمادا على الأفكار عامة، إنما لم يأت أحد ليقول إنه يمكن تصنيفها باعتبارها عمارة أخلاقية. فعلى سبيل المثال هل يمكن القول إن العمارة التي بالفعل صنعت لتظهر الإنشاء مثلا تكون عمارة أخلاقية في حين أن العمارة التي تخفيه تفقد عنصر الأخلاق؟ أو أن العبارة التي تتبنى مبدأ الشكل يتبع الوظيفة والتي صكها هوراشيو جرينوه في حقبة عمارة الحداثة والتصميم الصناعي في مدرسة الباوهاوس وجاء من بعده لويس سوليفان كاتبا الشكل أبدا لا يتبع الوظيفة بعد العام ١٩٣٠ هي عمارة تبدو أخلاقية، في حين أن عبارة الشكل يتبع التدفق والتي صكها سيم فان در رين (٢٠٠٣) هي عمارة غير أخلاقية؟ أو أن ما كتبه فرانك لويد رايت عن أن الشكل يتبع الوظيفة كان ذلك يعد سوء فهم، فالشكل والوظيفة شيء واحد، امتزجا في رباط روحي، يعد غير أخلاقي أيضا، وماذا عما كتبه فيليب جونسون عن أن الشكل دائما يتبع الشكل وليس الوظيفة، مع الأخذ في الحسبان ما صاغه المعماري هارتموت إسلينجر (٢٠١٤) لشعار جامع للعلاقة بين كل من الشكل والعاطفة بدلا من العلاقة بين الشكل والوظيفة، فعنده جاء الشكل لا يتبع الوظيفة إنما الشكل يتبع العاطفة. وفي السياق يمكن التعامل مع شعارين يبدو أنهم في تضاد أولهما لميس فاندر روا الأقل هو الأكثر وثانيهما لروبرت فنتوري الأقل هو الممل.

تبدو تلك المسألة في البحث العلمي معضلة، فأيهما يمكن أن يتصف به المبنى إنه تابع للأخلاق تحقيق الزهد والتقشف من خلال البساطة أم أن البساطة التي تسبب الملل هي عمل غير أخلاقي؟ أم أن كليهما في الواقع لا يتعلق بفعلة أخلاقية؟ كما ثمة تصنيف أخلاقي آخر يبدو له علاقة بمسألة الأخلاق يمكن أخذه في الحسبان عن أن العمارة الأخلاقية وتلك الأخرى غير الأخلاقية هو من قبيل التفرقة بين عمارة تحقق أبعاد تلبية احتياجات مستعملين بعينهم وأخرى لا تحقق ذلك، كما إنها تلك العمارة التي تأتي غير ملائمة لثقافة مجتمع بعينه، فتفقده هويته وشخصيته، وأخرى تدعم شخصيته وهويته. ولعل مراجعة سريعة لبعض أنماط العمارة من خلال أعمال رواد في هذا المجال يمكن أن تدلل على أن هذا التوجه الناعت العمارة بأخلاقية أم غير أخلاقية قد يكون صحيحا مرة كما أنه قد يكون غير صحيح مرات أخرى كثيرة، كما نتابع في الأمثلة التالية: أ.) عمارة وعمران تعبيرية أوربية اكسبريشنالليزم (١٩٠٣-١٩٢٥) المبنى كمجسم، إيريك مينديلسون في ألمانيا وجاودي في أسبانيا؛ ب.) عمارة وعمران تعبيرية جديدة نيو اكسبريشنالليزم (١٩٦٤-١٩٧٥)؛ الإنشاء هو المحقق لاستمرارية التشكيل، ألفار ألتو. ج.) عمارة وعمران تكعيبية جديدة كيوبيكيزم الحقيقة مختبئة وراء الهيئة؛ د.) عمارة وعمران استثنائية إكسبشينالليزم جميع أنواع الفنون هي خداع وكل أنواع الخدع تعتمد على الاستثناءات، فالمصمم يحل بعض المشكلات لجعلها تبدو مسرحية، بول رودلف. وما فات ينبغي إدراجه ضمن الثوابت والقول بإنه تابع لمدى أمانة المعماري في تنفيذ متطلبات مجتمعه لتحقيق حياة أفضل، أما المتغيرات فتكون تابعة لاختيار المعماري التوجهات الفكرية من نظريات واتجاهات ومدارس وتيارات يرى في النهاية أنها تتلاءم الآن مع ما يريد تقديمه من أعمال، فالمعايير الأخلاقية تفيد بإنه على المعماري أن يلتزم باشتراطات المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد وهي التي جاءات في تعريفات العمارة والعمران.

يبدو ما فات طرح بديهي لحد كبير، فالكل يعلم—أو لعله يجب أن يعلم—الأثار المادية والنفسية والمجتمعية الثقافية والبيئة والطبيعية من العمارة على مستعملي البناء، إنما لعل العلم بهذا الشيء يكون من منظور النفعية والمصلحة التي تعود على المستعمل من احترام كافة الأبعاد السابقة وغيرها. إنما مسألة أن احترام ذلك الشيء من عدمه يعد مخالفة أخلاقية يجب أن يعاقب عليها القانون فإن ذلك لعله ضربا من المستحيلات. أما العقاب الأخلاقي هنا فجل تركيزه كان—أو لعله تركز—فحسب بقدر على الالتزام الموكل به المعماري تجاه موكله أو صاحب العمل. أما النظر في إنه يجب أن يكون هناك عقاب قانوني تجاه مخالفة المعماري في مبناه آداب المهنة من الناحية الشكلية أو المنهجية فهذا أمر يصعب إلى حد كبير إدراجه تحت مسائل قانونية. إنما على مر التاريخ، وباختلاف المجتمعات والثقافات، كان ولا يزال يترك في غالب الأحوال لضمير المعماري، ويمكن أن يتعدى ذلك لأهواء المعماري، وأحيان قد يكون عائد للتركيب النفسي والشخصي للمعماري في بيئة محددة، ذات ثقافات محددة. هذا علاوة على أن تلك الأمور الأخلاقية من الصعوبة بمكان تحديد إن كانت مقصودة أم هي ناتج ضعف فكري لمعماري بعينه، أو ضعف جيل كامل من المعماريين نتيجة لسوء التعليم أو التربية أو الثقافة. إذ فكيف يمكن القول إن إضافة أدوار علوية على مبان سكنية كانت قد بدأت بارتفاع محدود، ثم قام بمالكها بإضافة أدوار أخرى أن تلك مخالفة أخلاقية؟ فقد يراها البعض مخالفة لأنه أضاف أدوار فغير النمط المتجانس وشخصية المكان إنما يراها آخر إنها أضافت قيمة اقتصادية للمالك كما حلت مشكلة احتياج. ومثلها ما ينعكس من تغيرات مجتمعية أدت لتغيرات في العمارة والعمران حدثت وما زالت تحدث في المدينة تراها فئة مخالفات أخلاقية وتراها فئة أخرى مقبولة بل ومرغوبة. وكيف يمكن الحكم على أخلاق أي معماري كان بأنه استمد لمبناه شخصية أو لمدينته هوية لا تتلاءم مع شخصية السياق الطبيعي أو المجتمعي الذي يبنيه فيه؟ وكيف يمكن تقدير أن هذا المعماري عبث بأخلاق المبنى حين تجاهل استخدام نظرية بعينها، أو إنه فضل عنها نظرية أخرى في سياق آخر، أو حتي إنه كان قد ابتكر نظرية جديدة وباتت لم تعد تتناسب مع الزمن؟ أيضا كيف يمكن الحكم على أن هذا المعماري أو غيره بأنه أو أنهم ليس لديه أو لديهم أخلاق لأنه أو لأنهم لم يتبع أو لم يتبعوا طريقة جديدة في البناء قد تحقق أي منفعة وإنه هو أو هم قد استخدم أو استخدموا طريقة أخرى منفعتها أقل؟ كما وكيف نحاسب معماري بعينه ونتهمه إنه خالف الأخلاق لأنه اختار نظرية التفكيكية على سبيل المثال في مبناه وتجاهل الوظيفية بما أضر بمصلحة المواطن في الراحة والانتفاع بفضاءات البناء؟ فالمسألة مركبة، حيث تتداخل وتتشابك الأبعاد على الرغم من كونها في الظاهر يمكن قياسها، وإن قلنا إن ثمة ثوابت ومتغيرات يكون التعامل معها من منظور الجماليات، فتلك يكون فيها وجهات نظر، وإن عدنا فقلنا أن ثمة أبعاد أخرى يمكن الحكم عليها بمعايير كمية يمكن قياسها مثل خفض التكلفة وتوفير الطاقة والمساحات الدنيا، أو أن هناك قيم إنسانية يجب الاسترشاد بها لأنها تلتزم بالثوابت التراثية أو تتلائم معها فإنه تظل فكرة إدراج أن تلك المخالفات ذات العلاقة بالقيم الإنسانية—والتي لها علاقة بأفكار البناء—تعد أخلاقية أم غير أخلاقية بحاجة لنظر من منظور القيمة.

٣. ماهية القيمة: حول المفاهيم والدلالات

يستخدم مفهوم القيمة في العمارة والعمران ارتكازا على محورين: أ.) التعامل مع القيم من منطلق كونها تشير إلى مفهوم عام ارتبطت محدداته بمخرجات كافة مجالات العلوم الفلسفية والدينية والمجتمعية والاقتصادية والنفسية وعلوم الإنسان. ب.) طرح إمكانات التعامل مع القيم كمفهوم شديد الخصوصية يتلاءم مع المجال المعماري العمراني في حيز محدداته المكانية والزمنية. فالقيمة ذات علاقة بتقدير الشيء وتثمينه والقيام مقامه وتقويمه كما جاءت عند بعض المنظرين العرب مثل ابن منظور والفيروز أبادي وابن فارس والراغب الأصفهاني. أما في الاصطلاح فجاءت حسب ناثان في قاموسه الموسوعي للتعليم والتدريب الصادر بباريس (١٩٨١) باعتبارها بناء على تقدير معين هي السمة المميزة لخاصية شخص أو شيء في حد ذاتهما؛ خاصية شخص أو شيء بالنظر لتجسيد قيمة معينة (NATHAN, 1981, pp. 1025-1026). وتبقى القيم من ضمن العناصر المشاركة لتحقيق منفعة مجتمعية عامة، ومعايير يستخدمها الناس لتقييم الأفعال والناس والأحداث، وأشار لتعريفاتها علماء الاجتماع من مثل: ماكس شيلر وكلايد كلوكهون وروبن ويليامز وميلتون روكيتش فيما بين الأعوام١٩٦٩- ١٩٧٩، كما نقلنا أيضا عن المفكرين المعاصرين مثل ماريسا زافالوني (١٩٢٩) وناجارازن (٢٠٠٦) وكريستين ميلاني فوكلير (٢٠٠٩) وموهان ديبارما (٢٠١٤)، كما يبين (الجدول ١). بيد أن لفظة القيم كمصطلح لم تظهر على أنها مباحث مستقلة في العلوم الإسلامية، فحسب محمد الكتاني (٢٠٠٤) وسيف عبد الفتاح (٢٠٠٧) وخالد الصمدي (٢٠٠٨) وفتحي حسن ملكاوى (٢٠٠٨) ينظر إليها باعتبارها معايير ثابتة حاكمة تتخلل كل أنماط النشاط الفكري والمادي للإنسان، في حين ارتبطت القيم بعملية العمران في التاريخ العربي القديم خاصة على مستوى المدن فظهرت فكرة المدن الفاضلة.

جدول ٢: القيم الإنسانية في الفكر الغربي المعاصر (١٠٢٨-٢٠١٤)

(Kluckhohn, 1951, p. 395; Rokeach, 1969, p. 3; M.Williams, 1979, pp. 15-46; Naagarazan, 2006, p. 2 and 3; Vauclair, 2009, pp. 62-63, 65; Debbarma, 2014, pp. 181-183, 187

التاريخ	الرواد	السمات	أمثلة
قبل ١٩٢٨	ماكس شيلر	مبدأ إرشادي	الأمانة
		قيمة نوعية	الثبات
		قيمة فنية أو نقدية	لشيئ محدد
		هدف	السعادة
١٩٥١	كلايد كلوكهون	مفهوم ضمني أو صريح	سمات فرد أو جماعة تحديد تأثيرات الأوضاع والوسائل ونهايات الفعل المتاحة
١٩٦٩	ميلتون روكيتش	القدرة على توحيد المصالح المتنوعة	في جميع العلوم المعنية بسلوك البشر
١٩٧٩	روبن ويليامز	توجاهات انتقائية	المصلحة والسرور والإعجاب والتفضيلات والواجبات والالتزامات الأخلاقية والرغبات والحاجات والمتطلبات والإعراض أو الكراهية والنفور والمقاتن ومواطن الجاذبية
١٩٨٠	جيرت هوفستد	من اللبنات الأساسية للثقافة	لشرح الاختلافات الثقافية
	زافالوني	له دلالات عديدة متباينة	
١٩٩٠	بشتانوفسكي	معايير: أوامر وتوصيات مبنية على قواعد معرفة مسبقًا تضبط بعض جوانب الانفعال	قل الحقيقة، لا تحسد، اعتن بالوالدين
		مبادئ: متطلبات أخلاقية أعم تتعلق بكُلّ خط انفعال الإنسان تلتحم بوعيه الأخلاقي وصفاته الأخلاقية	العدالة المجتمعية والوطنية
٢٠٠١	جان بول ريسفيلر	موضوع سيكولوجي: إنسان، حدث، سلوك، أو شيء	
		توجيه رغباته واتجاهاته نحو هذه المواضيع السيكولوجية وتحدد طبيعة سلوكه تجاهها: القبول، الرفض، اللامبالاة، التعاطف، التحامل	
٢٠٠٦	ناجارازن	مبادئ توجيهية	تعزيز الرفاه والصالح أو يمنع الضرر
		نموذج فكري حول ما هو مقبول	
		معتقدات عاطفية	منتسبة للتجارب وتوجه الخيارات والقرارات والأفعال
		مقاييس	لوزن الخيارات
٢٠٠٩	كريستين ميلاني فوكلير	مبادئ موجهة	تُصيغ وتُشكل في حياة الأفراد
		أهداف مُحفزة	تُحدد ما هو المفيد وما هو الضار بالنسبة للمجتمع
		مفهوم	تبحث عن المرغوب
		أهداف ظرفية	وتناقش المرغوب فيها
٢٠١٤	موهان ديبارما	صفات ومعتقدات	يتم تقاسمها داخل مجتمع محدد
		ثوابت أخلاقية	توجه السلوك الإنساني في المجتمع
		مفهوم مركزي	في العلوم الاجتماعية

وبقدر ما تعبر مبادئ القيم عن الانفعال الفردي والمجتمعي إذا تم رصدها على مستوى الأحداث والأنشطة، فإنها تعبر كذلك عن سمات النتاجات البنائية للعمارة والعمران إذا ما تم رصدها على المستوى البنائي. وهو الأمر الذي يشير إلى أن مبادئ القيم يمكن أن تعمل كمعايير معمارية عمرانية، وأن مجمل المعايير والمبادئ يكونان معا الوعي الأخلاقي، فمبادئ القيم المعمارية العمرانية تعمل كضوابط مجتمعية وأطر لبلورة التوجهات وتقديم التوصيات التي يجب اتباعها عند التعرض للبناء من منظور علاقته بالقيم المجتمعية، سواء أكان ذلك في مراحل مراجعة وتقويم النتاج المبني القائم أم في مراحل وضع الأسس لما يجب أن يكون عليه النتاج المستحدث. ويتطلب التعامل مع عمارة وعمران المجتمعات العربية التقليدية على مستوى حيزاتها المكانية المحدودة والممتدة وعلى مستوى محيطها الحيوي المباشر التعرف على بعض المعايير أو المبادئ الداخلة في عملية البناء. تعمل هذه المبادئ كمعايير للفاعلية أو كقوانين أو كقوى محفزة أو كعناصر ضرورية جوهرية لمراحل الإعداد للبناء وعند طرح أفكار التخطيط والتصميم، أو عند تقويم الأداء النهائي لتشكيل أعمال البناء لهذه المجتمعات. ويمكن ترتيب بعض المبادئ القيمية وفق خمس علاقات أساسية تعبر عن العلاقة بين الإنسان والعمارة والعمران كالتالي: أولا- مبادئ حول العلاقة بين الإنسان والمكان: الإدراك الحسي/الإحساس بالمكان، البساطة والتركيب/المقياس الإنساني، التكيفية والتوائم بين الإنسان والمكان، ثانيا- مبادئ حول العلاقة بين الإنسان والمجتمع: المعاملات والعلاقات الإنسانية المجتمعية والعائلية مقابل الفردية والاستقلالية، المكانة المجتمعية الثقافية والاقتصادية، مكانة المرأة ومكانة الطفل، الخصوصية والتوازن بين الخصوصية والعمومية. ثالثا- مبادئ حول العلاقة بين الإنسان والعمارة والعمران المجتمعي: الملكية/رموز الملكية/نمط الحيازة/المنفعة المشتركة، المشاركة المجتمعية/الشعبية، رضا المستعملين، رابعا- مبادئ حول العلاقة بين الإنسان والعمارة والعمران الحضاري: القيم المتجهة نحو التعبير عن الذات، التفرد/التمايز، المحافظة والصيانة وإعادة التأهيل الثقافة الخارجية والانفتاح على العالم الخارجي، خامسا- مبادئ حول العلاقة بين الإنسان واستمرارية العمران: القدرة على الاستمرارية (الإدامة)، الاكتفاء الذاتي من الموارد البشرية والطبيعية، التوازن/التحكم البيئي، الأمن والأمان/الحماية. ومن ثم يمكن القول أن الأبعاد الاجتماعية والثقافية أساسية لتطوير والحفاظ على هوية المدينة— بداية من توفير سياق مجتمعي محلي لخلق خلفي ثقافية لفهم وتفسير كيفية عمل المدينة وفق تعدد مكوناتها، واختلاف أمكنتها، ومن ثم فعلى المعماري أن يلتزم بكل ما يحقق الجودة ليس من وجهة نظره إنما من خلال المعايير التي قدمها المنظرين على مر الزمن. وهنا عليه الالتزام بكافة المعايير الحاكمة لتصنيف المدينة باعتبارها مكان يذهب الناس للعيش فيه على أفضل ما يكون هذا العيش، محترما اعتبارات الحق في المدينة ومدن الاستدامة ومدن ذكية ومدن قابلة للعيش والمدن للكل والمدن للغرباء ومدن الاختلاف ومدن قابلة للحب، وغيرها من بقية الاعتبارات التي قدمها المنظرين وبما يتلاءم مع ثقافة وأعراف وقيم كل مجتمع، وتدفع كل تلك الاعتبارات بالمدن أن تصبح مدن عظيمة قابلة للعيش فيها، كما إنها يمكن أن تصبح كل منها مدينة علامة.

٤. في طريق البحث عن البصمة—أهي مدينة عظيمة أم علامة؟

يظل السؤال عظيمة أم علامة أيهما يدفع أكثر نحو تفرد ملائم لمدن الواقع العربي؟ فهل هذا الاختلاف المرغوب يكمن وراءه عامل نفسي معنوي يبعث على البهجة في النفوس أم إنه احتياج إنساني ضروري؟ وإن كان احتياجا إنسانيا ضروريا بل وملحا فلماذا دائما ما يلجأ المخططون والمصممون للحديث عن ضرورة أن تطبع وتدمغ مدينتهم بهوية معاصرة في البدايات الحماسية، وحين يبدأون في التنفيذ أو لعله التطبيق، دائما ما تجد بعض من مدنهم مسخا غريبا غير مكتمل الشخصية؟ ولماذا أيضا بعد كل هذا السيل من الكتابات التي استمرت أكثر من نصف قرن كامل أو يزيد عن الهوية والأصالة والمعاصرة والانتقال إلى استعراض مفاهيم الطابع والدمغ ومدينة علامة تفتقر بعض المدن في العالم العربي النامي لدمغة مختلفة عن بعض المدن الأخرى؟ إنما يبدو أن تلك الأسئلة المطروحة ما زالت مشروعة، ليس في عالمنا العربي فحسب إنما في الفكر الغربي أيضا فعلى الرغم من الأدبيات التي تتكلم عن المدن العظيمة إلا أن هانك سافيتش (٢٠١٠) يجد أن مصطلح 'مدينة عظيمة ' فضفاض ويعاني من الغموض، مؤسسا تقريره عن الغموض من منظور سياسي وعبر تتبع آراء رؤساء مدن، فمنهم من قرر أن عظمة مدينته يكون بناء على عظمة التصميم (مينابوليس)، في حين يشير الثاني إلى إن عظمة (سول) اعتمادا على توافر الخدمات المجتمعية التي تمتلكها المدينة، في حين يقرر ثالث إن عظمة (باريس) آتية من جودة الحياة. كما قدم سافيتش أربعة عناصر للحكم على عظمة المدينة وأطلق عليها الفورسيز (4Cs): العملة (أو الميزان الاقتصادي) والكونية (أو تعدد الثقافات) والتركيز (أو عدد السكان) والجاذبية مقررا أن الأربعة عوامل تلك ليس حكمها نهائيا (Savitch, 2010, pp. 42, 43-45)، فالمدن العظيمة هي التي ترحب بالتنوع العرقي وتدعم وتشجع الفنون وتمتلك مسارات للحصول على رأس مال استثماري لتحفيز روح المبادرة والابتكار والاستفادة من البيئات الصحية التي توفر الهواء والماء النقي، ويلخص رؤيته تلك عبر تحليله لمدينتين أمريكيتين والمدن الرائدة والجديدة، كما يبين (الشكل ٣)، كما ترى إيرين بيدريلو (٢٠١٥) المدينة العظيمة ليست المدينة القابلة للعيش فيها بل هي المدينة القادرة على الحب، وأفرز تلخيص نواتج حوارها مع إيثان كنت النائب الأول لمشروعات الفضاءات العامة في نيويورك (Pedruelo, 2015) على النحو الذي يبينه (الشكل ٤). وتبين استبانة أجرتها مؤسسة ساساكي (٢٠١٤) واشترك فيها ١٠٠٠ من مواطني سان فرانسيسكو وشيكاغو وأوستين ونيويورك وبوسطن وواشنطن دي سي عن أكثر الأشياء التي يحبونها في مدينتهم، وكانت قد غطت تلك الأسئلة معظم الأنشطة المتعلقة بحياة المدن، وفي نهاية الاستبانة يقرر إنه من المفيد جلب أكثر عدد من الناس إلى المدن لأن الحياة الحضرية أمر أساسي لحياة أكثر استدامة (الشكل ٥).

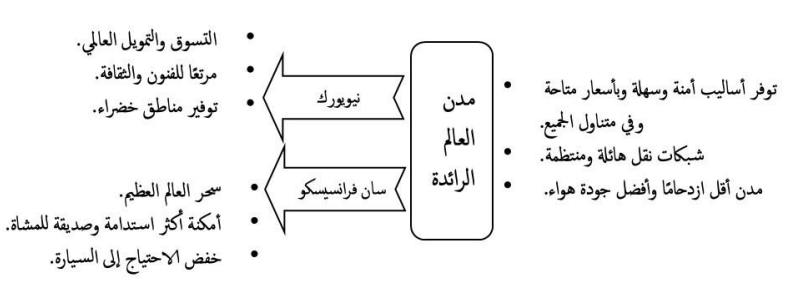

(شكل ٣) تحليل المدن الأمريكية لمدن رائدة وجديدة عظيمة

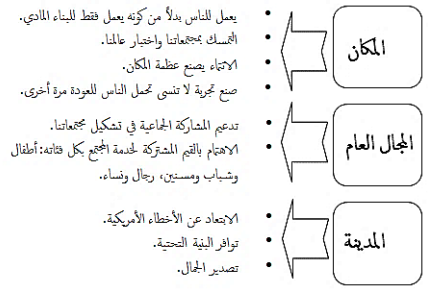

(شكل ٤) سمات المدينة العظيمة

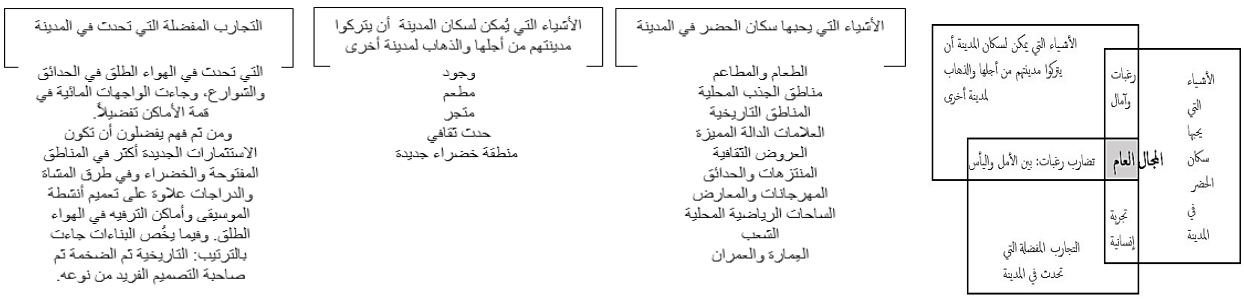

(شكل ٥) مدن قادرة على الحب (Ford, et al., July 2014)

وتحدث تقرير عنوانه *فرصة لنمو مدينة عظيمة* من خلال صنع المكان عن أن قوة مدينة ميسيسوجا تكمن في شعبها وكيفية الاستفادة من موهبة موظفيها في إدارتهم لأعمال المدينة، حيث أن صنع المكان في هذه المدينة هو الشيء المثالي الذي جذب إليها استثمارات ضخمة (Anon., 25 July 2015, p. 10). كما يشير في حين أن عظمة المدينة مستمدة من الازدهار الاقتصادي المعتمد على التقنية والطاقة من خلال عمل نظام المترو في قياس كفاءة المدينة الأمريكية، محتلة مدينة سان فرانسيسكو في العام ٢٠١٤ مرتبة عالية نتيجة الازدهار الاقتصادي، حيث يتم تغذية اقتصاد المدينة من قبل ريادة الأعمال ووسائل الإعلام الاجتماعية وتطبيقات الجوال، والبرمجيات المستندة إلى مجموعة برامج الحاسوب وأنظمة تخزين المعلومات، وتصميم أنظمة الحاسوب والنشر على شبكة المعلوماتية، والتقنيات النظيفة والحيوية وإجراء البحوث الطبية والمبنية على الاقتصاد الإبداعي والعلمي. (DeVol, et al., January 2015, p. 1)

وفي الأونة الأخيرة بان أن ثمة اتجاها جديدا مبنيا على الحملات التجارية المتلاحقة والبارزة لتسويق المدن وفق مفهوم العلامة التجارية التي يعرفها جراهام هانكينسون وفيليبا هاوكينج (١٩٩٣) بأنها منتج أو خدمة تصنع تمايزا من خلال مكانتها تنسيبا للمنافسة مع الغير وحسب شخصيتها التي تضم مزيجا فريدا من الصفات الوظيفية والقيم الرمزية (Hankinson & Cowking, 1993, p. 10)، وأصبح دمغ المدينة بعلامة تجارية يطلق عليا إنصاف العلامة التجارية brand equity حسب هانكيسون (٢٠٠٤) دلالة على المدخول الاقتصادي للمدينة في المستقبل (Hankinson, 2004, p. 111). ومن أهداف المدينة علامة حسب جريج أشورث (٢٠٠٩) اكتشاف أو إنشاء التفرد، مما يجعل المدينة مختلفة عن المدن الأخريات (Ashworth, 2009, p. 9). ويكتب كافاراتزيز (٢٠٠٤) عن أشويرث (١٩٩٠) وفوجد (١٩٩٩) وكوتلر (١٩٩٩) وفيرمولين (٢٠٠٢) ورينيستو (٢٠٠٣) عن بعض الطرائق التي تمكن من رؤية مدينة علامة هي تلبية الاحتياجات الوظيفية والرمزية والعاطفية وتوفير نقطة انطلاق جيدة لمدينة التسوق، وهي التي تشكل إطارا متينا يمكن من خلاله إدارة صورة المدينة، هذا وإن كانت حقا صورة المدينة تحتاج لتخطيط، مع توافر السمات التي تلبي متطلبات تلك الاحتياجات لتكون مدبرة بحيث تجعل المدينة فريدة من نوعها بين الأخريات (Kavaratzis, 2004, p. 66; Warnaby, 2009, p. 413). ويمكن التعامل مع فكر 'مدينة علامة' من خلال التوصيف السابق باعتبار إنها مسألة تابعة لصنع المدينة باعتبارها سلعة محددة أنشئت لخدمة مواطن محدد ومعروف أو مجموعة من المواطنين بعدالة وإنصاف، مع ضرورة عمل تمييز لتلك المدينة عن المدن المنافسة لها في نفس المجال أو المحيط الجغرافي المحلي والدولي، مع إضافة أبعاد أخرى للمدينة تميزها بطريقة أو بأخرى عن غيرها من المدن المصممة لتلبية نفس الحاجة أو الغرض. مع العناية بالتعبير البصري واللفظي والسلوكي لنموذج فريد يعمل مدينة فريدة ولعله هنا يتمثل في القيم الإنسانية والرمزية والتاريخية والأخلاقية محترمين تعدد الثقافات المبنية على اختلافات عرقية دون تمييز وتدعيم فكر المواطنة، وأن تتمتع المدينة بتفكير خططي للمستقبل مبني على موازنات استثمارية مدعومة بقدرات تقنية فائقة. ومن ثم لصنع مدينة علامة يجب البدء بتخطيط موجه ومرن وذا غايات عليا، للحاضر والمستقبل معا. أما مبادئ التخطيط فعليها أن تعزز جوانب الحيوية المجتمعية: الإدارية والاجتماعية-الثقافية (الشعبوية) والاقتصادية والتقنية، على أن تكون الانطلاقة من مفهوم تصميم متجدد عابر الاختصاص عبر فهم النظام الاجتماعي والاقتصادي المعقد وراء اللانظام أو الفوض الحضرية التي تبدو في بعض مدن العالم النامي التقليدية والجديدة، أما أهم السمات والخصائص التي ينبغي أن تملها المدينة علامة كما في (الشكل ٦).

٥. نهج لصنع مدينة علامة بصمة مدينة

تساعد الاقتباسات التي نقلت عن ويندت بعد مراجعتها في النسخة الأصلية من أدبية جين جاكوبز في رصد أسباب موت وحياة المدينة العظيمة، فهي تتساءل بداية عن كيف تعمل المدينة في الحياة الحقيقية...، وما هي مبادئ التخطيط المعززة للحيوية الاجتماعية والاقتصادية، كما تحاول أن تفهم النظام الاجتماعي والاقتصادي المعقد وراء اللانظام الذي يبدو في المدن، هذا علاوة على ما يحدث من استمرار الناس في الشارع، حيث تعقب جاكوبز إنه إن كان لهم بيوت ملائمة فإنهم لن يتركوها ويملؤون الشوارع، كما أن المدينة دون قلب قوي وشامل، تميل إلى أن تصبح مجموعة من المصالح معزولة عن بعضها البعض (Jakobs, 1993, pp. 5, 16, 38, 165). ويحضرنا في هذا المقام إنه كان للمفكر الفرنسي هنري لفيفر نظرية شاملة وثاقبة للأخطار الناجمة عن النظام الاقتصادي الراهن على أي مدينة بانت في دراسته المهمة 'إنتاج الفضاء المدني' التي تعود الى العام ١٩٧٤، حيث يسأل لفيفر في معرض نقاشه ما إذا كانت المدينة عملا تراكميا أم فنيا (oeuvre في اللغة الفرنسية) أم مجرد منتج؟ معطيا نموذج المدينة الغنية بتراثها وتاريخها مثل مدينة البندقية التي تشكل وحدة متكاملة، أي عملا تراكميا أو فنيا بامتياز. فالوحدة المدنية والتناسق المعماري في مدينة البندقية لم يأت كنتيجة تصميم منفرد لشخص واحد بل هي نتيجة تراكمات تاريخية ضمن قانون تنظيمي راعى خصوصية المدينة ووضعيتها الجغرافية، جامعا ما بين الحاجة والرمزية والخيال. وفي مقارنة مع ما فات فإن المدن المنتجة حديثا تعطي مثالا عن التكرار الممل، كما يقول لفيفر حيث يتم الفصل بين العمارة والتنظيم المدني، وحيث تلعب التقنية الحديثة دورا في إنتاج فضاء مدني متجانس، تتحول فيه العمارة إلى منتج نموذجي تسهل عملية استبداله وبيعه وشرائه. وأضيف هنا علاوة على ملاحظات هنري لفيفر إن المدن التي تنتج بهذه الطريقة هي مدن يسودها جو من التباعد والطلاق بين الناس، على عكس ما تعدهم به الحملات الدعائية. وهو الأمر الذي يتطلب أن يكون ثمة منحى آخر يمكن من تدعيم مواطن القوة في تخطيط وتصميم المدينة، ويبحث هذا النهج في تقديم أطر مبنية على التوليف بين مفاهيم ليست جديدة إنما مستخلصة من قراءات سابقة على النحو الذي يبينه (الشكل ٦): أ.) إن هناك عدة محلات مكانية وبشرية يمكن رصد التفرد من خلالها هي: المدينة والمكان والمبنى في مستوى، والناس الذين يستعملون ويديرون تلك المحلات في مستوى آخر، ب.) إن الاجتماع والثقافة، الاقتصاد والتسويق والإدارة، المعلومات والسياسة في العصر الحاضر هي دعائم أساسية–إنما ليست الوحيدة—التي يمكن بها استخلاص ثلاث ماهيات للمدن هي: الهويات الحضرية (مدينة اجتماعية ثقافية سياسية) والهوية الاقتصادية (المدينة علامة تجارية) والهوية المعلوماتية والإعلامية (مدينة التدفقات والاتصالات)، وتلك الهويات بالارتكان

عليها فحص العلاقات واستخلاص ثلاث دلالات للمدن الحضرية هي جودة حضرية urban quality معرفة حضرية urban knowledge وسلطة حضرية urban power، وكلها في النهاية يمكن أن تخرج مدينة حضرية متفردة الهوية the city of the uniqueness، مدينة التفرد أو مدينة علامة، ج.). إن العلاقات البينية بين السلطة والجودة والمعرفة تحيل إلى إمكانات استشراف المستقبل من خلال تعزيز القدرة على التفكير والتعبير والعمل.

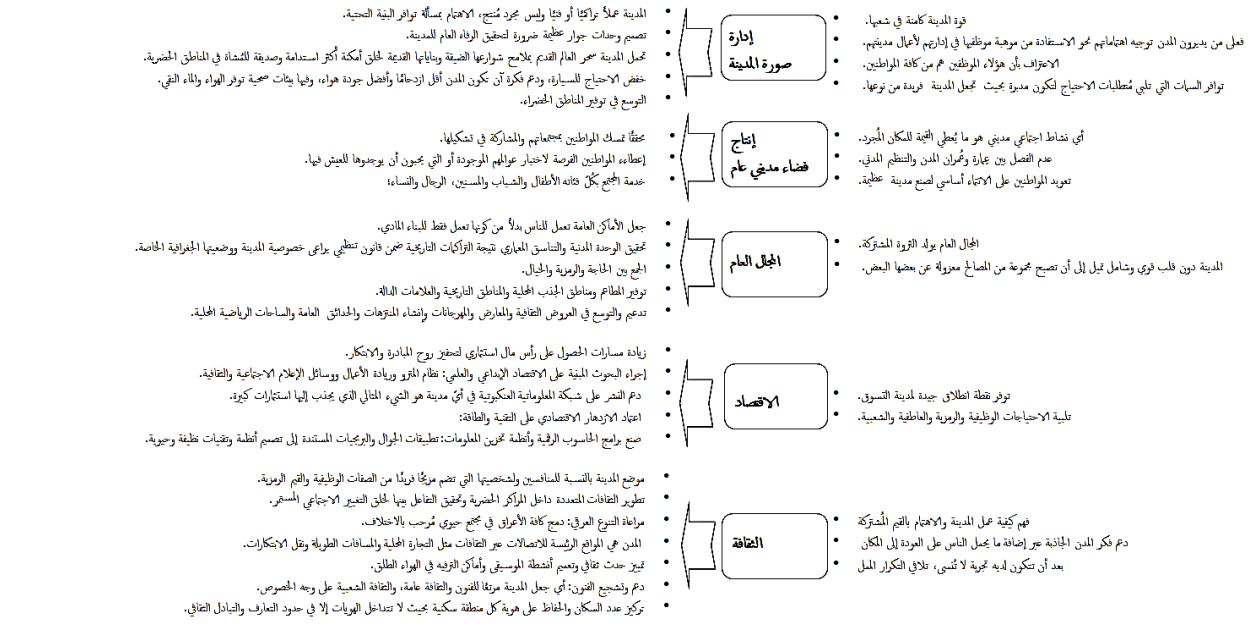

(شكل ٦) سمات وخصائص المدينة علامة

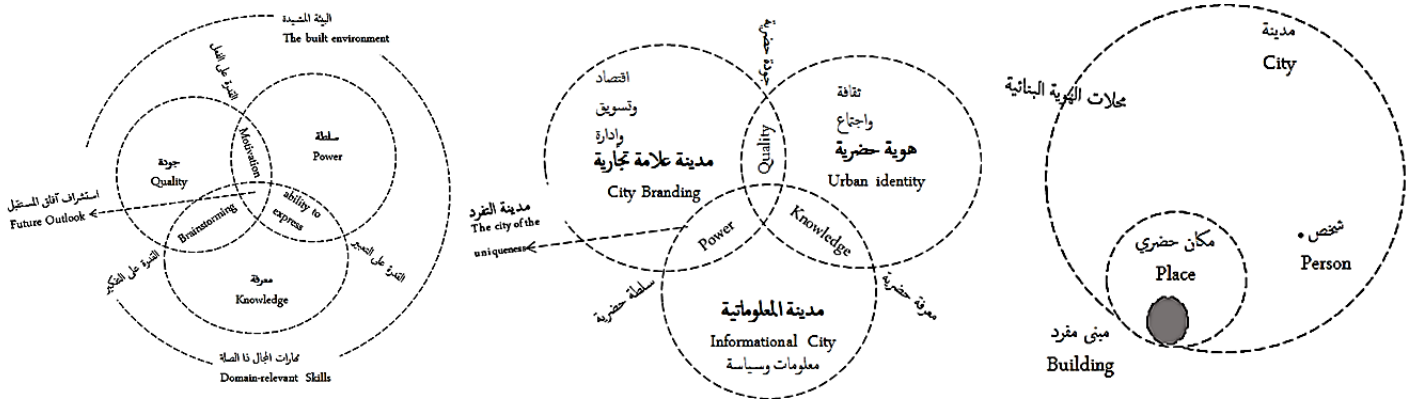

أ. محلات الهوية: المدينة والمكان والمبنى المفرد والناس (راجع الشكل ١).
ب. علاقات أنماط الهوية: حضري وعلامة تجارية ومعلوماتية.
ج. علاقات محددات الهوية: السلطة والجودة والمعرفة.

(شكل ٧) مدينة التفرد أو مدينة علامة: جودة وسلطة معرفة

٦. المدينة عابرة النماذج الفكرية Trans-paradigms city ـــ متكافئة في القوة equipollent وليس لها نظير peerless بصمة مدينة

تمثل المدينة المصدر الأساسي نحو السعي من أجل تحقيق التفرد الحضري urban uniqueness، فصنع هوية مدينة urban identity ـــ أو لنقل أيضا اختلافها ـــ وجعلها مدينة علامة يكون من خلال تفعيل الممارسة المهنية المبنية على فهم وظيفة المدينة وطبيعة ساكنيها، ويكون ذلك في الغالب في مستويين: أفكار البناء المعماري والعمراني المبتكرة والتجسيد العياني لقيم الحياة اليومية الفعلية لسكان المدينة؛ وجعل الاثنين يلتقيان لخلق معان خاصة بكل مدينة.

فالهدف ليس صنع مدينة ذات هوية حضرية ـــ علامة تجارية urban identity— branding City، إنما مدينة متكافئة ومتعادلة في نقاط القوة equipollent city ليس لها نظير بما يميزها عن غيرها من المدن الأخرى peerless city ، من خلال أفكار مبتكرة مبنية على ثلاثة مفاهيم هي: قابلية التغيير changeability وقابلية التفرد uniqueability وقابلية التطويع (الطواعية) metability، كما يبين (الشكل ٨).

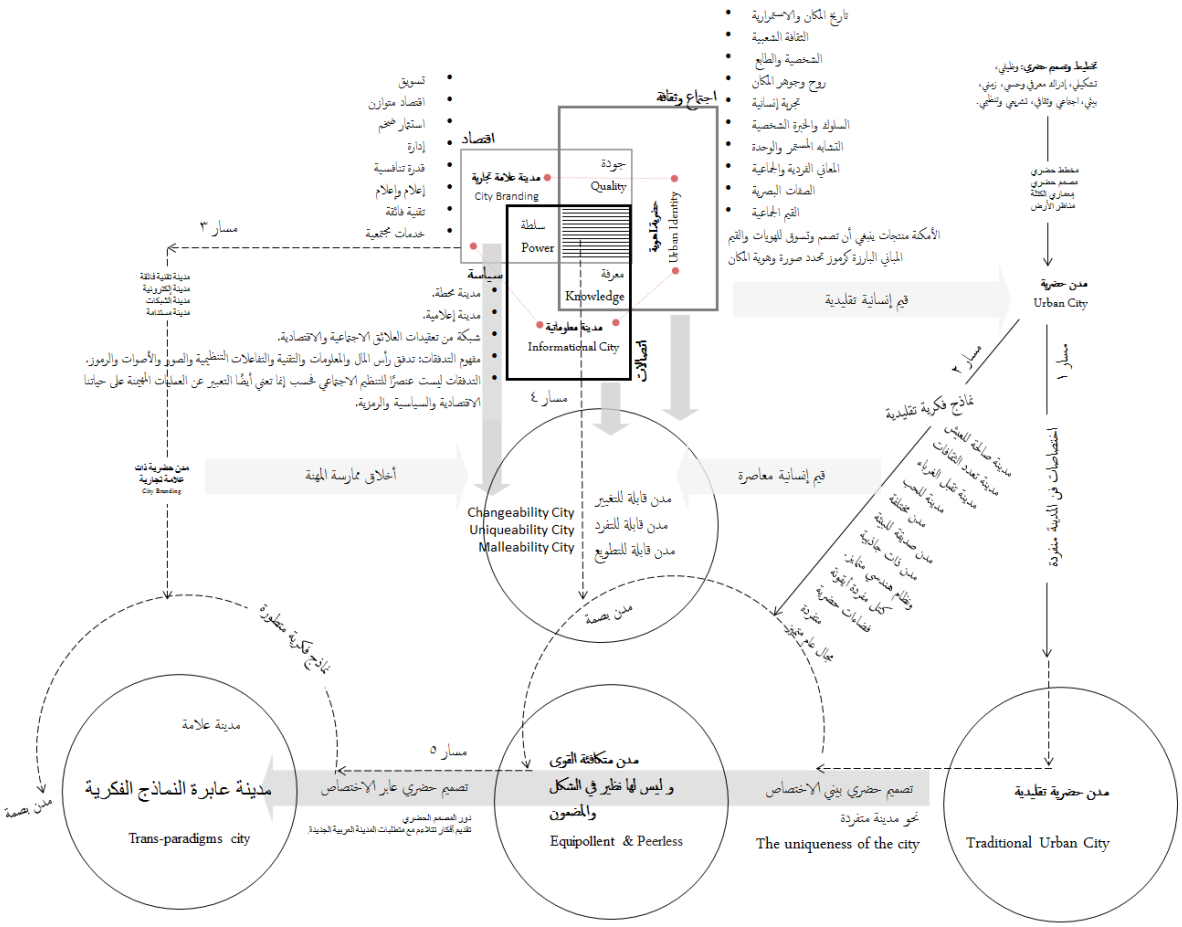

(شكل ٨) المدينة عابرة النماذج الفكرية Trans-paradigms city

يعني مصطلح مدن قابلة للتغيير Changeability City النظر للمدن باعتبارها كائنات دينامية متحولة وليست ساكنة، وأن التغيير فيها يكون نتيجة رغبة مستعمليها والمطورين الحضريين الذين يعدوها والذين يقومون بتعديلها في المستقبل، كلما استدعت الحاجة ذلك التغيير، في حين يعني مصطلح مدن قابلة للتفرد uniqueability city خلق حياة مدينية استثنائية يريد الناس تحقيقها في المدينة، أو هي القدرة التي يمتلكها أصحاب المصلحة بكافة أطيافهم سواء من المخططين المصممين أم من المسؤولين والإداريين أم من قاطني المدينة أنفسهم للتعبير عن التفرد viability of exclusivity وفق ما يملكون من قدرات ومهارات فائقة في كافة مستويات البناء المشيد: المدينة ووحدات الجوار والأمكنة والكتلة المفردة، أما المصطلح الثالث فهو مدن قابلة للتطويع أو الطواعية Mallebility City فيعني جودة الشيء في التشكل إلى شيء آخر من دون كسر، مثل سهولة تشكيل الطين، وهو مصطلح مستمد من علم المواد، (الشكل ٩).

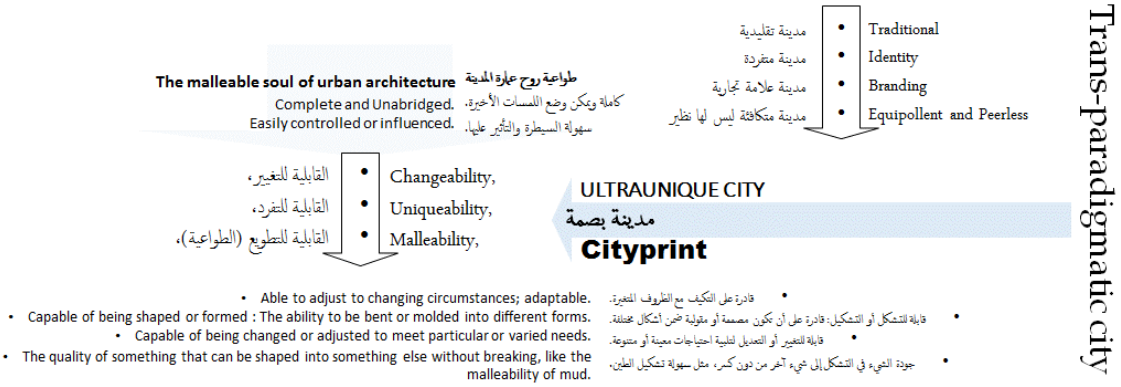

(شكل ٩) سمات المدينة بصمة

وهو الأمر الذي يدفع نحو تقديم نهج جديد يمكن أن يطلق عليه نهج عابر النماذج الفكرية التقليدية، وهو يفضي في النهاية إلى نظرية المدينة بصمة. وتحمل تلك النظرية في محتواها هدفا تنويريا للمطور الحضري (المخطط والمصمم) عند التعامل مع المدن القائمة والجديدة على حد السواء يدفع بكل مدينة بما تمتلك من مواطن القوة أن تكون مكافئة للمدن الأخرى equipollent citiy إنما كل مدينة ينبغي أن تكون لا تضاهي وأن يكون ليس لها نظير unmatched city بين المدن الأخرى. ولكي يتحقق ذلك على المدينة أن تحقق شرائط تحقيق الهوية الحضرية من مثل: التاريخ والثقافة والشخصية والطابع والتجربة الإنسانية والسلوك والتمسك والمعاني والصفات البصرية والخدمات المجتمعية العامة، ومتطلبات المدينة علامة تجارية من مثل التسويق والاقتصاد المتوازن والاستثمار الضخم والقدرة التنافسية، وشرائط المدينة الإعلامة من مثل توفير شبكة من تعقيدات العلائق الاجتماعية والاقتصادية، واتباع مفهوم التدفقات: تدفق رأس المال والمعلومات والتقنية والتفاعلات التنظيمية والصور والأصوات والرموز مع الأخذ في الاعتبار أن تلك التدفقات ليست عنصرا للتنظيم الاجتماعي فحسب إنما تعني أيضا التعبير عن العمليات المهيمنة على حياتنا الاقتصادية والسياسية والرمزية. آخذين في الاعتبار تطوير الصفات والمعاني التي تلاءم العصر مجتمعة، والخاصة بمكان وزمان محدد، علاوة على تفعيل القدرة على استيعاب التجارب الثقافية الخارجية.

فبداية على الممارس المهني أن يأخذ بعين الاعتبار القضايا المتعلقة بموضوعات من مثل القيم الإنسانية والأخلاق السامية وهوية المدينة والمدينة علامة لتتلاءم مع متطلبات ورؤى مستعملي المدينة الذين يحيون فيها ويعرفون إنها ليس فحسب ملكا لهم، بل هي أيضا تشكل جل ممتلكاتهم، ومن ناحية أخرى على الجهات المسؤولة عن تمويل صنع المدينة ثم إدارتها بعد ذلك أن يأخذوا في اعتبارهم تلك المسألة بعناية. ويركز مفهوم المدينة علامة على ضرورة أن يفهم سكان المدينة وزائريها شخصية المدن القائمة—والحفاظ عليها—أو ابتكار شخصية واضحة المعالم للمدن القائمة أو الجديدة، من خلال خبراتهم الشخصية والمعيشية لفترات تسمح لهم بذلك، وتكون خالية من السلبيات الحالية وتعزيز الإيجابيات الموجودة، حيث أن أهم سؤال يطرحه المطور الحضري يستهدف تعريف ماهية تلك المدينة التي يتعامل معها—وما هو جوهرها—إن كانت قائمة أو جديدة وما هو دورها الفاعل في مشروعات التنمية المستقلبية، وعليه أن يضع رؤى لا تحيد كثيرا عن تنفيذ تلك الماهيات، مع الاحتفاظ بالقدرة على توفير المرونة للتطوير مرة ومرات—إما للحفاظ على الهوية إن تطلب الأمر ذلك أو تغييرها وطرح هوية جديدة بعلامة جديدة—واضعا نصب عينيه أن المستقبل في العصر الحاضر تتغير ملامحه بسرعة.

ولعل بعض المفاتيح الأساسية لجعل المدينة العربية الجديدة المعاصرة علامة بما تحمل من هوية متفردة ومواطن قوة وتمايز تتحقق من خلال: أ.) ازدهار اقتصادي معتمد على الطاقة والتقنيات النظيفة والحيوية، ب.) ميزان اقتصادي متزن ومدخول متميز في المستقبل مبني على توفير عائدات استثمارات وقدرات تنافسية عالية ، ج.) تشجيع مسارات الحصول على رأس مال استثماري لتحفيز روح المبادرة والابتكار من خلال إجراء البحوث المبنية على فهم طبيعة الاقتصاد العلمي والإبداعي، د.) الاستفادة من موهبة موظفي المدينة في إدارتهم لأعمال المدينة: ريادة الأعمال ووسائل الإعلام الاجتماعية وتطبيقات الجوال والبرمجيات المستندة لمجموعة برامج الحاسوب وأنظمة تخزين المعلومات وتصميم أنظمة الحاسوب والنشر على شبكة المعلوماتية: هـ.) تفعيل مبادئ الحق في المدينة: العدالة والإنصاف، وخلق مدينة كونية عالمية قابلة لتعدد الثقافات والتنوع العرقي واستيعاب الغرباء، و.) تحقيق جودة الحياة لتكون مدينة قابلة للعيش وقادرة على الحب مع توفير الخدمات المجتمعية والاستفادة من البيئات الصحية التي توفر الهواء والماء النقي ودعم وتشجيع الفنون، ز.) التحفيز لخلق مدينة ذات جاذبية مفرطة بتصميم يتبع نظام هندسي مرن ومختلف، ح.) تطبيق تشريعي يلتزم بتطبيق أخلاقيات ممارسة المهنة، ط.) الاعتماد على أن من يصنع التفرد هم الناس أصحاب المكان وليس من ساقتهم الظروف لابتكار تفردة للمدينة ولا يعلمون عن قيم ساكنيها شيء. فإن اختار العالم العربي أن يكون له معتقد فكري يمكن من وضع حجر أساس لتخطيط وتصميم مدنا متفردة ذات هوية من خلال مفهوم المدينة علامة فإنه من الضرورة بمكان الالتزام بأن القضايا الأخلاقية في المقام الأول هي متعلقة بآداب ممارسة المهنة، والمعنى إنه لا توجد معايير أخلاقية تحكم الأفكار والآراء والتوجات ذات العلاقة بالبيئة المشيدة سواء أكانت على مستوى عمارة وعمران الكتلة المفردة أم مستوي الأحياء ووحدات الجوار السكني أم على مستوى المدينة بكاملها. وتحقق المستويات السابقة بهيئتها هوية مدينية متفردة إنما تظل ثمة هويات أخرى يمكن التعامل معها بشكل منفرد من مثل هوية الكتلة وهوية المكان وهوية الناس—والأخيرة هي الأهم في منظومة عملية التخطيط والتصميم الحضري. وإنه في كل مرة يكون التعامل مع تلك الهويات بما يستلزم من معايير وتصميم مرتكزة على تفعيل مبادئ القيم الإنسانية عامة ومبادئ القيم التي أفرزها الإطار الفكري والحضاري للمجتمعات على مستوى الفكر المعاصر. اليوم، القبول بأن التخطيط والتصميم المديني قد يتشابه على مستوى العالم كله نتيجة لارتباطه بموضوعات إنسانية لا يمكن التخلي عنها مثل الاقتصاد والسياسة والاجتماع حتمي وملزم، إنما تظل ثقافة المجتمعات بما فيها من قيم وتقاليد مبتكرة—تدفعها إلى السطح تجارب الحياة اليومية—هي مفتاح للحكم النهائي على صياغة معايير جديدة تمكن من الوصول لتفرد مديني مختلف، بل ومتغير من مدينة لمدينة أخرى، وهو ما يتطلب فتح آفاق لطرح أفكار تخطيط وتصميم جديدة وغير مسبوقة وتطبيقها بشكل يتلاءم مع استمرارية تفردها.

ومن هنا يحصر هذا البحث خلاصته الأخيرة في أن تصميم وتخطيط المدن يحتاج إلى تعزيز الفهم الواعي الذي يعطى للمعمارين من مخططي ومصممي المدن الموهوبين المساحة لتقديم أفكار جديدة تتلاءم مع متطلبات المدينة العربية المعاصرة، ويكون ذلك من خلال التفاهم مع صانعي القرارات العليا والمتحكمين في رؤوس الأموال وأصحاب المصالح وكل الأطراف المعنية للقبول بالالتزام بأهم الموضوعات العالمية في المقام الأول كأن تكون المدن رقمية وإنتاجية وقيمية ومستدامة وذكية للجميع—وهي نماذج فكرية غربية خالصة—والاتجاه للعناية بأن تكون الأفكار معاصرة ومبنية على تصميم حضري هجين عابر الاختصاص، عبر طرح نهج فكري عابر لتلك النماذج الفكرية، والمعنى إنه لابد من الاستفادة من معطيات القيم الإنسانية الحضارية التقليدية والمعاصرة معا لتمزج بينهما للخروج بقيم إنسانية تتلاءم مع الحاضر؛ حتى وإن لم يكن له. سوابق تاريخية. ويكون ذلك في ثلاثة مناحي:- أولاها- معني بالجانب الاقتصادي الرأسمالي الذي يعتمد المدينة مشروعا استثماريا ضخما يولد عوائد غير مسبوقة دون الإخلال بمبادئ القيم الإنسانية التقليدية بعد فهمها من منظور معاصر، وثانيها- معني بالجانب الإداري والتنظيمي والتشريعي الذي يجعل من المدينة كائنا منظما محكوما بشرائط لا تغفل مسألة الهوية والتفرد، وثالثها- بنائي، معماري عمراني، لا يعتمد فحسب على النماذج الفكرية الغربية—وإن كانت بحق نماذج عبقرية ولا مجال لمناقشة مدى أهميتها وتأثيرها على مسار تاريخ فكر فن المدينة—إنما عليه أن يأخذ من تلك النماذج الفكرية بما تحمل من حركات ومدارس فكرية مجتمعية وما أفرزته من نظريات ونهوج وتيارات معمارية عمرانية لتصبح مدخلا لصياغة تيار عنايته بتخطيط وتصميم المدينة عامة، والمدينة العربية على وجه الخصوص، ومنه انطلاقا لتوسيع دائرة تقديم نظريات لها علاقة بالشكل والتشكيل في كافة مستويات التصميم المدينية بدءا من المسكن والمكان وانتهاء بالمدينة، وهو ما يسميها هذا البحث مدينة عابرة النماذج الفكرية trans-paradigms city، والمعنى إنها تأخذ من النماذج الفكرية المتاحة—العربية والغربية—وتقدم نموذجا فكريا عربيا معاصرا يضع في اعتباره شرائط تطوير مدينة علامة من خلال أن يطرح أصحاب المصلحة المخططين والمصممين والإداريين والمستثمريين والمستعملين الدائمين المقيمين والزائرين أفكار جديدة عبر رؤى الجديدة، وأن أي مدينة علامة جديدة تحتاج إلى الجهد والوقت.

٧. المراجع

Anon., 25 July 2015. *An Opportunity to Grow a Great City Through Placemaking,* Brodway, New York: PPS Project for Public Spaces.

Ashworth, G., 2009. The Instrument of Place Branding: How is it done?. *European Spatial Research and Policy,* 16(1), pp. 9-22.

Banham, R., 1955. The New Brutalism. *Architectural Review,* 118(708), pp. 355-361.

Banham, R., 1966. *The New Brutalism: Ethic or Aesthetic?.* London: The Architectural Press.

Castells, M., 1997. *The Information Age: Economy, Society, and Culture, vol.II: The Power of Identity.* ambridge, MA; Oxford, UK: CBlackwell.

Castells, M., 2010. *The Information Age: Economy, Society and Culture, vol. I: The Rise of the Network Society.* Second edition with a new preface, Edition history: Blackwell Publishing Ltd., Ie, 1996 ed ed. United Kingdom: A John Wiley & Sons, Ltd..

Clement, A., 2011. *Brutalism: Post-War British Architecture.* s.l.:The Crowood Press.

Collins, P., 2004. *Concrete: The Vision of a New Architecture.* s.l.:McGill-Queen's Press-MQUP.

Debbarma, M., 2014. Importance of Human Values in the Society. *International Journal of english language, Litreature and humanities,* 11(1), pp. 181-195.

DeVol, R., Ratnatunga, M. & Bedroussian, A., January 2015. *2014 Best-Performing Cities, 1 San Francisco,* s.l.: Milken Institute.

Ellin, N., 1999. *Postmodern Urbanism.* New York : Princeton Architectural Press.

Entrikin, J. N., 1991. *The betweenness of place: Towards a geography of modernity.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Fisher, T. R., 2000 . *In the Scheme of Things: Alternative Thinking on the Practice of Architecture.* s.l.:University Of Minnesota Press.

Ford, G., Miner, J. N. & Vizgaitis, V. W., July 2014. *The state of the city experience,* s.l.: Sasaki.

Fox, E. J., 2008. preface. In: M. Spector, M. D. Merrill, J. v. Merriënboer & M. P. Driscoll, eds. *Handbook of Research on Educational Communications and Technology.* Third Edition ed. New York: Taylor & Francis Group, pp. xxviii-xxxii.

Fox, W., 2000. *Ethics and the Built Environment.* London and New York: Routledge.

Gatley, J. & King, S., 2015. Editorial. *Fabrications,* 25(2), pp. 149-151.

Hall, P. G., 1996. The global city. *International Social Science Journal,* pp. 15-23.

Hankinson, G., 2004. Relational Network Brands: towards a conceptual model of place brands. *Journal of Vacation Marketing,* 10(2), pp. 109-121.

Hankinson, G. & Cowking, P., 1993. *Branding in Action.* London, UK: McGraw-Hill.

Hubbard, T. H. a. P., 1998. *The Entrepreneurial City: Geographies of Politics, Regime and Representation.* Chichester: John Wiley.

Huxtable, A. L., July 16, 1981. Is modern architecture Dead. *The New York Review of Books,* 28(12), pp. 17-22.

Jakobs, J., 1993. *The Death and Life of Great American Cities.* s.l.:Modern Library; Reissue edition.

Jencks, C., 1977. *The Language of Postmodern Architecture.* New York: Rizolli.

Jencks, C., 1986. *What is Post- Modernism.* s.l.:Academy editions .

Jencks, C., 2005. *The Iconic Building- The Power of Enigma.* London: Frances Lincoln .

Jenkins, R., 1996. *Social Identity.* London: Routledge.

Kavaratzis, M., 2004. From city marketing to city branding: Towards a theoretical framework for developing city brands. *Place Branding,* 1(1), p. 58–73.

Kluckhohn, C. K. M., 1951. Values and value orientations in the theory of action: An exploration in definition and classification. In: *Toward a General Theory of Action.* Cambridge: MA: Harvard University Press, pp. 388-433.

Kotler, P., Asplund, C., Rein, I. & Haider, D., 1993. *Marketing Places Europe:Attracting Investements,Industries, Residents and Visitors to European Cities,Communities, Regions and Nations.* London: Pearson Education.

Levinson, J., 2005. *The Oxford Handbook of Aesthetics.* Oxford: Oxford University Press.

Loeb, S., 1971. A Survey of Ethical Behavior in the Accounting Profession.. *Journal of Accounting Research,* 9(2), pp. 287-306.

Loud, P. C., 1990. *The Art Museums of Louis Kahn.* Durham & london: Duke University Press.

Lynch, K., 1960. *The Image of the City.* Cambridge: Technology Press.

Lynch, K., 1981. *A Theory of Good City Form.* 1981 ed. Cambridge MA: MIT Press.

M.Williams, R., 1979. Change and Stability in Value and Values Systems: asociological prespective. In: *Understanding Human Values.* USA: The free press, pp. 15-46.
Moore, R. L. & Graefe, A. R., 1994. Attachments to recreation settings: The case of RailTrail-Trail users.. *Leisure Sciences,* Volume 16, pp. 17-31.
Naagarazan, R. S., 2006. *A Textbook on professional etheics and human values.* New Delhi: New Age International (P) Limited Publishers.
NATHAN, 1981. *Dictionnaire Encyclopédique de L'éducation et de la Formation.* Paris: s.n.
Newman, O., 1996. *Creating Defensible Space.* Washington, DC: HUD Office of Policy Development and Research.
Parnell, S., 2011. Ethics VS Aesthetics Architectural Design 1965-1972. *Field: a free journal of architecture,* 4(1), pp. 49-54.
Pedruelo, I., 2015. *What Makes a City Great? It's not the Liveability but the Loveability.* [Online]
Available at: http://www.policyinnovations.org/ideas/innovations/data/00287 [Accessed 24 7 2015].
Proshansky, H. M., 1978. The city andself-identity. *Environment and Behavior,* Volume 10, p. 147–169.
Proshansky, H. M., Fabian, A. K. & Kaminoff, R., 1983. Place-identity: Physical social world socialization of the self. *Journal of Environmental Psychology,* Volume 3, p. 57–83.
Relph, E., 1976. *Place and Placelessness.* London: Pion.
Rokeach, M., 1969. *The Nature of Human Values.* New York: Free Press.
Samuel, F., 2007. *Le Corbusier in Detail.* Oxfdor: Routledge.
Savitch, H., 2010. What makes a great city great? An American perspective. *Cities,* Volume 27, p. 42–49.
Smithson, A. & Smithson, P., December 1953. House in Soho, london. *Architectural Design,* p. 342.
Spector, T., 2001. *The Ethical Architect: The Dilemma of Contemporary Practice.* s.l.:Princeton Architectural Press.
Sturgeon, N., 2009. Moral Disagreement and Moral Relativism. *Social Philosophy and Policy,* 11(1), pp. 80-115.
Vale, L. J., 1992. *Architecture, power, and national identity.* New Haven : Yale University Press.
Vauclair, C.-M., 2009. Measuring Cultural Valus at the Individual-Level: Considering Morality in Cros-Cultural Value Research. *Ram–Revista DE Administracao Mackenzie, V. 10, N. 3* , 21 June, 10(3), pp. 60-83.
Velasquez, M. G., 2006. *Business Ethics: Concepts & Cases.* 6 ed. London: Person Education International.
Warnaby, G., 2009. Towards a Service-Dominant Place Marketing Logic. *Marketing Theory,* 9(4), pp. 403-423.
Wasserman, B., Sullivan, P. & Palermo, G., 2000. *Ethics and the Practice of Architecture.* New York: Wiley.
Webster, H., 1997. *Modernism Without Rhetoric: Essays on the Work of Alison and Peter Smithson.* : John Wiley & Sons Inc.
Williamson, T. & Radford, A., 2000. Building, Global Warming and Ethics. In: *Ethics and the Built Environment.* New York: London: Routledge, pp. 57-72.